

المسودة الرابعة

ربيع الثاني 1443هـ

نبذة موجزة عن سيرة الشيخ عبدالله بن خثلان

تنويه هام: هذه المسودة أعدت لغرض المراجعة الداخلية فقط، وحيث مازالت تحوي كثير من الأخطاء، كما ان بها عبارات قد يرى البعض أنها مسيئة لهم. لذا فهي متاحة فقط لمن يُعهد إليهم المشاركة في التصحيح والتعديل، سواء من ذرية صاحب السيرة أو محبيه أو المختصين في هذا السياق، المعتمد على سرد الأحداث الشخصية واستخلاص العبرة منها. ويرجى من الجميع الحرص على عدم اطلاع الغير عليها، لحين إتمام المراجعة والتصحيح وشطب ما قد لا يرضي البعض، وهذا المخطوط لا يجوز تداوله أو السماح لغير المأذون لهم بمشاهدة أو قراءة أي جزء منه. وقبل إتمام المراجعة فهو غير قابل للنشر أو الإذاعة، ويجب على كل من يتصادف وقوع نظرهم على المسودة، ان يلتزموا الأمانة ويعرضوا عن النظر في أمر لم يسمح لهم بقراءته، ناهيك بالاعتباس او الثرثرة عنه لكائن من كان، والله الهادي إلى سواء السبيل والرشاد والإخلاص.

مقدمة: بناء على رغبة نفر من ذرية وأحبة والدي رحمه الله، قمت بجمع سيرة حياته التي اعتمدت على ثلاثة مصادر، أولها ما حدثني به ودونته من معلومات عن مسيرة حياته، أو معلومات عن أسلافه استقاها من عمه الحكيم زيد بن عبدالله، الذي بدوره نقل عن جده الصمصام علي بن حمد. وثانيها ما سمعته في مجالسه طيلة ربع قرن، وثالثها ما أضفته من معارفي وتجاربي، لتسهيل استخلاص العبر من المخطوط الأصلي الذي عنوانه "سيرة وعبرة" وليس مجرد سرد لأحداث العمر. وستلاحظون أيها الأحبة ان هناك غموض في بعض العبارات (الجنازة - أبو شوارب - المحض) عند ذاك يرجى الرجوع لصلب السيرة، حيث لا يتسع المجال هنا لإيضاح كافة الأمور. أنوه ان السيرة الكاملة تقع في عدة مجلدات، تنوف على 1000 صفحة، لكن الملاحظات عليها جمة، ولم يتم إنجازها بالكامل. لذا عمدت لإعداد ملخص لها يقع في نحو 200 صفحة، وقد جرى توزيع نسخ ورقية من مسودته قبل ست سنوات، على عدد من ذريته وبعض القرابة والمحبين. وقد لقيت تقدير تسعة أعشار من اطلعوا عليها، وقدم الكثير منهم ملاحظات واقتراحات مفيدة، إلا ان نفر آخر لم يكن حالهم كذلك فقد بدى لديهم تشوش. مثل الذي يسأل "لماذا أبوك؟" وآخر من الأقارب يرفض ذكر أي عبارة عن أسلافه إلا بالتفخيم التام، ولا بد ان يقال إنهم أظهر من الملائكة، وأصلح من الأنبياء وأذكى من العباقرة. حاولنا افهامه ان ذلك يجعل السيرة "منشور أصفر" لا فائدة من قراءته، لكنه لا يدرك لذا جنحت لعدم ذكر أي اسم من القرابة. آخرون حاولوا إخفاء الضغينة والحقد أو الجهل، بادعاء الحرص على ذكره بعدم التعرض لأي مواقف عصبية

مرت عليه، أو الإشارة لأي فشل أو صعاب واجهته، ويكتفى بسجل موجز يفخم أعماله! وآخرون هددوا ان ذكر بعض الحقائق سيزعج أكابر، لا ترضيهم كتابة أمور حساسة، ناسين ان الثورة المعلوماتية في القرن العشرين، جعلت من المستحيل إخفاء الحوادث أو التمويه عليها، لذا رأيت المضي في نشر هذه النبذة الموجزة، وتعديلها حسب المقترحات العقلانية من المحبين، أما الشطحات النقدية الفارغة فسنعرض عنها. وبالطبع فإن هذه النبذة لا تحوي أي بيانات عن أسلاف صاحب السيرة، ولا تاريخ أرضهم وأحداثها عبر القرون السالفة، كما في نص السيرة المفصلة. بل تقتصر هذه النبذة على سرد معالم موجزة لبعض أحداث حياته، فأسأله تعالى الهداية إلى سواء السبيل.

مسودة نص النبذة المختصرة عن سيرة عبدالله بن خثلان : —

- ولد نحو عام ١٣٠٥هـ في وادي الفُرْع - حريق نعام - في أسرة ميسورة من سبيع.
- درس في كتاتيب البلدة، وتعلم على يد عمه زيد الفقه والكتابة والحساب.
- في عام ١٣٢٠هـ جاء أحد حفدة الإمام فيصل بن تركي لحاير سبيع، بعد أن استردوا الرياض من بطش مندوب الأتراك (ابن الرشيد)، واستدعى عبدالعزيز (الملك لاحقاً) حشد من القبائل لصد هجوم الرشيد عليهم، وذلك أول لقاء له مع أبو تركي.
- ذهب مع عمه حمد ووالده وعدد غفير من أسرته، وفرق من بقية قبائل المنطقة للدلم، حيث شارك في مساندة المدافعين عنها ضد الغزاة، لكنه لم يقاتل لصغر سنه. وتحقق نصر باهر ضد العدو والذي ولى هارباً إلى حائل وترك العارض لابن سعود ورجاله.
- في مطلع عام ١٣٢٢هـ جاء نفير من الإمام عبدالرحمن وولده (الملك عبدالعزيز) لأسرة آل خثلان للتوجه للقصيم للمشاركة في تحريرها من الأتراك وأعاونهم. وسمح له الأمير ابن صنيان بالقتال، ودخل مع عمه حمد عنيزة وتسلم الإمارة سبعانها.
- حاصروا بريدة عدة شهور ثم فتحوها، وحرر الملك عبدالعزيز حفدة عمه أبو هلا الإمام (سعود بن فيصل بن تركي) الذين كان آل رشيد قتلوا آبائهم في الخرج والحريق قبل ١٧ سنة، واقتادوا البقية سجناء إلى حائل، وكان بينهم اثنان والدتهما قريبة والدته وصارت له علاقة وثيقة معهما.
- عاد عمه حمد للحريق لمتابعة أملاكهم (مزارع ومواشي وتجارة) وحضر والده عبدالرحمن للقصيم، وشارك الجميع في القتال ضد العثمانيين.
- بعد الانتصارات في القصيم استعان ابن رشيد (عبدالعزيز الجنازة) بجيش من البصرة، فوصلته جنود ومدافع الترك، التي شاهد نيران رمايتها لأول مرة وتمنى ان يتعلم تشغيلها. أثناء معارك غرب عنيزة تسرع بعض المجاهدين من الحوطة والحريق وقفزوا نحو العدو، مخالفين تعاليم القائد مما أدى إلى انكسار وفرار، غضب عبدالعزيز من تصرفهم، وعادوا لديارهم ولم يطلب منهم المشاركة معه بعدها، إلا من اعتذر منه.

- بقي يرحمه الله في بلده مع أهله، يعمل على ثلاثة أمور أولها التفقه في الدين أساس كل خير، ثم أعمالهم التجارية والزراعية يحقق منها المكاسب، وينفع نفسه وقرابته وجيرانه، ويقاوم بشجاعة ودراية لنصرة الحق.
- عمت نجد مسغبة وقط عام ١٣٢٦ هـ وأدى ذلك إلى مآسي كثيرة، أسوأها أن تقاتل بنو أخوال والدته مع بنو عمها في مذبحه بشعة على أمور تافهة، وجاء الملك عبدالعزيز وأدب بعض المعتدين ونفى آخرين خارج الحريق. وشاور آل خثلان حول إمارة البلدة، وأشار العم زيد بن عبدالله بتعيين أحد مماليكه (معشوق) أميراً عليها، ليعلم الجميع تهاوة المنصب الذي يقتل بعضهم البعض عليه، ولما عينه غادر الحريق متوعداً البغاة، لو عادوا من المنفى أو عكروا الأمن.
- في عام ١٣٢٨ هـ حلت طامة كبرى على وادي الفرع، فقد شعرت إسطنبول بتزايد طموحات عبدالعزيز للتوسع، ورغبته الحصول على منفذ نحو الخليج، لذا فقد رفض متصرف الأحساء دخول تجار نجد للهفوف والقطيف. وأوعزوا إلى واليهم في مكة أن يقبض على شقيقه الوحيد (سعد) وأمروا آل سبهان في حائل بإلغاء الصلح، واستعادة القصيم ثم غزو الرياض. وفي عُمان وقطر أخذ الصغار يتطاولون ويتآمرون، أما في الكويت فقد ترجى مبارك أن يبقى عبدالعزيز عنده شهور لصد سعدون (المنتفق) فقبل. وكان مخلب الهر هم حفدة عم الملك (أبو هلال) وهم رجال عظماء لكن رفاق أشرار أوغروا صدورهم، ضد الإمام عبدالرحمن (عم آبائهم) فنقضوا البيعة، وخرجوا إلى عاصمة إمارة جدهم (الخرج) ناسين مقتلة وسجن آبائهم وحوادث ربع قرن السالف.

/*****/

/ /

في / جزء محجوب مؤقتاً في هذه النسخة / هذا الجزء سرد لأحداث نزاع أليم بين أعمام المرحوم وأخواله /

- في مطلع ١٣٣١هـ كان عبدالعزيز ابن سعود يتأهب لفتح الأحساء، وجمع قواته في ديار سبيع (رماح-العتش-العزّمة) ولم يصل نفير منه أو أبو اثنين إلى آل خثلان في وادي الفُرع، ولم يتطوعوا للذهاب له مع البعض الذين سارعوا لذلك بغية الكسب. وقد تمكن من دخولها رغم مقاومة الحامية التركية، وحث مبارك الكويت المطران والعجمان للوقوف ضده، وحمد آل خثلان الله أن استجاب لدعائهم له بالنصر.
- في نهاية ١٣٣٢هـ ورد نداء من ابن سعود لآل خثلان للقدوم إلى الرمحية، وعلموا أن بقايا الترك تجمعوا في البحرين لاستعادة الأحساء، واستنهضوا حاكم حائل الصغير سعود الرشيد (أبو خشم) للهجوم على الرياض، الذي خاف من سطوة ابن جلوي في القصيم، فقرر الاستدارة عليها ووصل قرب المجمععة في مطلع السنة التالية. التقى الجيشان في جراب ومع ابن سعود مدفعين، كانت أول مرة يقاتل فيها والدي بها، وهي صغيرة قديمة ومعهم شكسبير يدرّبهم على تشغيلها حتى قُتل. انقلب العجمان وأتباعهم على أعقابهم، مما أدى لانكسار جيش الإمام عبدالعزيز، لكن الهوان أصاب ابن رشيد لما رأى عدم قدرته على دخول سدير، ناهيك بغزو الرياض لما تيقن من عزيمة أهل التوحيد، وخاف أن يقطع عليه سبعان عنيزة الدرب، فعاد للزلفي ثم لحائل عند جدته (السبهان) الوصية عليه.
- قرر عبدالعزيز التوجه لتأديب العجمان لغدرهم به، فاستعانوا بآل صباح وآل ثاني، وقرر آل خثلان (ووالدي) عدم المشاركة في القتال الأهلي، حيث جاءوا من بلدتهم لصد أعوان الأتراك. بخاصة ان العجمان معهم أشخاص من بني هزان (القراية) من الذين فروا من الحريق قبل خمس سنوات. كما يصاحبهم نفر من حفدة الإمام سعود (أبو هلا) الذين كانوا في الحريق أيضاً زمن الفتنة، وقتل المصلين في المساجد، وقرر والدي عدم تلطّيح سلاحهم بدماء الجيران أو أحد من أمراء آل سعود. وبعد ثلاثة شهور وردتهم أنباء مقتلة كريهة في كنزان بجوار الأحساء حيث قتل عدد كبير من العجمان وأحفاد أبو هلا وبعض سكان الحريق، كما استشهد الأمير سعد الشقيق الوحيد للملك.
- في عام ١٣٣٥هـ كان شريف مكة (الحسين بن علي) قد انقلب على إسطنبول التي عينته في المنصب، فهجم على عساكرهم في الطائف ومكة المكرمة والمدينة المنورة، وأرسل أبنائه ليطاردوهم حتى الشام، ولمساعدة الإنجليز المحاصرين أثناء الحرب العالمية الأولى. وأثناء ذلك أهان ابن الشريف (عبدالله) أحد أقاربه (ابن لؤي) الذي التجأ لعشيرته في وديان سبيع (الخرمة- رنية- تربة) فغضب منه الحسين. وألّب ضدهم نفر من عتيبة الحجاز (برقا) وهجموا على قوافلهم ومراعيهم، فطلبوا العون من بقية سبعان القصيم والعارض. أوصى عمه زيد بعدم سفر جدي، وأن ينوب عنه والدي لصد العدوان، مساندة للعشيرة التي وقفت مع آل خثلان، ضد البغاة الذين قتلوهم في المساجد قبل سبع سنوات، وتمكنوا بفضل الله من دحر الغزاة ومات قائدهم (فاجر) وهرب البقية غرباً.

- ساورته أفكار قلقة بشأن مستقبله، وعقد العزم على عدم رغبته امتهان الزراعة والرعي، وأحوال مسقط رأسه لا تروق له، بخاصة ما فيها من جهل وضغائن وأحقاد وسفك دماء، وزاد حرصه على زيادة التفقه في الدين، وممارسة العمل في القضاء. والحرم المكي به خيرة الفقهاء، ومجالس العلم التي تُدرّس الحقوق والبيوع والمدائيات. استأذن والدته للسفر لمكة، وكانت قد انفصلت عن والده، من أثر المآسي التي حدثت بين أسرتهما.
- وصل أم القرى المكرمة معه صرة ريات فضه، وجنيهاً ذهبية سرعان ما تناقصت لشدة الغلاء، حيث فرض الحسين كثير من صنوف الضرائب والمكوس، فقد زادت نفقات ديوانه لكثرة الوفود القادمة لتهنئته بالجلوس على عرش "ملك العرب". لذا توجه ابن خثلان لمجالس العلم في الحرم، ثم دخل المحكمة واستأنس برأي أحد الصالحين، الذي بين له إن القضاء يقوم على المذهب الحنفي، وعليه أن يدرسه جيداً مادام مذهبه حنبلي يقارب أهل النقل المالكية.
- أثناء مروره من باب الزيادة، سمع رجل يدرس حشد كبير من الجالسين عن تجويد القرآن وفقه المذاهب الأربعة، وأخذ مكانه معهم في آخر صف، ثم داوم على الحضور يومياً، وكان الشيخ يميل إلى سؤال الحاضرين لجلب اهتمامهم، ونشأت بينهما علاقة توثقت لاحقاً واستمرت لعشرات السنين، وكانت مرحلة فارقة في حياة والدي. كان الرجل في عمر يقاربه، يتحدث بأناة وفصاحة جمة رغم أن البعض يسمونه الصيني وآخرون البخاري، والفرق بينهما هو الصفات الجسدية، فقد كان الوالد طويل القامة قوي البنية. وقد منحه الشيخ كتب عن المذهب الحنفي، وانكب على استيعابها مع عدم قناعته بتحكيم العقلانية على بعض مبادئ الشريعة. بعد أيام قال له الشيخ سعد وقاص الصيني، إن أحد القضاة عهدوا إليه النظر في دعاوى بادية شرق مكة، الذين دخلوا في المذهب الحنبلي، زمن إمارة الإمام سعود (أبو شوارب) قبل مائة سنة، وأنه يريد تعيينه ملازم له للمعاونة في القضايا. لما باشر العمل في المحكمة اكتشف أن أعراب الحجاز أسوأ مما ظن فيهم، وهناك كثير من الكذب والاحتيال.
- كانت مكة (المعابدة) تضج بحشد من أهل الحريق، منهم من شارك في الفتنة وهربوا من بطش ابن سعود، وبعضهم أمراء من حفدة أبو هلال، لكنه أثر عدم الانخراط معهم، لينفرغ لغرضه الأساسي من الغربية. أما الشعب ففيه حشد من السبعان (عنيزة) وعنوز وتميم (بريدة) وعلاقته معهم مختصرة.
- أثناء طوافه المعتاد بين العشاءين، الذي حافظ عليه لأكثر من نصف قرن، حتى أعجزته الشيخوخة، سمع من ينادى اسمه فوجده رجل من مطير كان معه في جراب. ولما تحدثا قال إنه عرفه من طول قامته وهمة مشيته، ويريده أن ينضم معهم للتدرب على تشغيل المدافع في جده، على يد مهندسين طليان وبراتب مجز، وأقل إحراج من ملازمة القاضي. هناك عرف الفرق بين مدفع قذائف الميدان والمدفع الرشاش، الذي يطلق عشرات الفشك الصغار في الدقيقة.

- انخرط في الخدمة العسكرية بجيش مملكة الحجاز، وترقى سريعاً إلى رتبة وكيل (باسل) وحضرت عنده والدته، في منزل متسع قرب الحرم، لديه خادمة تركمانية محبة للعمل المنزلي. رغم الغلاء إلا أن الأموال متوفرة لدى الشريف وحاشيته، والسلع منتشرة لدى الباعة بنوعيات جيدة، والرواتب تصرف في موعدها بالريال الهاشمي.
- في عام ١٣٤١هـ تزايدت اعداد الوفود القادمة للسلام على ملك العرب، وكان لا يثق في أحد، لذا لديه عدة فرق من الحرس، بعضها أشرف من قرابته وأخرى داغستان وثالثة من السودان، وابن خثلان رئيس كتبية الشرقيين (شروق)، امتحن السقاف ولائهم ووجدهم أهلاً للثقة، بعضهم من الحريق ومن عتبية الحجاز ونجد ودواسر.
- أهم من التقاهم والذي كان السلطان وحيد الدين (محمد ٦) الذي خلعه برلمان إسطنبول من السلطنة، وجعل السلطة في يد مندوبي الشعب! ويبقى خليفة فقط كرمز هيمنتهم على المسلمين، إلا أنه رفض وغادر تركيا. ثم جاء مكة عند الشريف للدعم، الذي كان قد اتفق مع الإنجليز (مكمان) ألا تكون له سلطة لاهوتية. بل يعامل كافة الرعايا في العراق والشام والجزيرة بالمساواة، على مختلف مذاهبهم وأديانهم، وتفصيل ذلك في سيرة الوالد الكاملة.
- لم يعلم الشريف بنوايا فرنسا وانجلترا، لإحداث دولتين صغيرتين على سواحل الشام، إحداهما للنصارى وأخرى لليهود. ونفى لوفود من الهند والمغرب وجاوة أي شيء من ذلك، حيث جل اهتمامه ان يكون ملك كل العرب!
- تحرش الشريف بسلطان نجد وإمام اليمن وحاكم عسير، وأرسل حملات عسكريه شارك فيها بعض الحراقى بل وحفدة الإمام سعود (١٣٢٩هـ) لكنها باءت بالفشل. وأخذ يرسل الذهب والفضة لتلك النواحي، لينضوا تحت لوائه كملك لكل العرب المشاركة!
- سلطان نجد (ابن سعود) لم يتوانى في توطيد حكمه، وفي عام ١٣٤٠هـ ضم حائل وعسير لسلطته، فزاد حنق الحسين عليه، خاصة بعد هزيمة قواته في تربه (٣٧هـ) وقرر منع أهل نجد من الحج، لكن عبدالعزيز منعهم من الذهاب بالقوة، بل انتهز الفرصة لتوسعة نفوذه، فتمكنت جنوده من ضم الجوف ثم القرىات لحكمه.
- في الشهور التالية توطدت علاقة ابن خثلان مع رجال الديوان، وخاصة السقاف والشريف عبدالله، بل أصبح يتاح له المثلول بين يدي سيدنا، الذي يأنس لصدق أقواله، على عكس من ينقلون له أخبار كاذبة يظنونها تسره. ولم يعد دوره مجرد رئيس احدى كتائب الحراسة، بل يساهم في مشاورات العمل احياناً.
- في عام ١٣٤٢هـ تضجر النجديون من منعهم أداء المناسك، ولما تساءل الحسين عما يقومون به من إيذاء الحجاج، وأنهم يأمرون بالمعروف بطريقة منكرة، أجابه والذي أن تلك تصرفات فردية يمكن إيقافها. أما منع كافة أهل نجد من الحج، فهو قد يدخل في نهيه سبحانه عن الظلم العظيم، بمنع الناس عن مساجد الله، وأولها المسجد الحرام فامتعض الحسين ومُنِع ابن خثلان من الدخول عليه لعدة أيام.

- بعد رمضان قالت والدته أن الأمير الجليل النبيل تركي بن عبدالله، الذي يعتبرها خالته (وهي ابنة عم والدته) رحم الله الجميع، قد أرسل مندوب يدعو لسفرها فوراً من مكة، وبين أن الإمام عبدالرحمن قد أذن للإخوان بالحج، وأن منعهم أحد يقاتلوه. كما أن زوجة الأمير من آل خماش، رؤساء بلدة الحوية قرب الطائف، قد أخبرتهم أن هناك تجمعات متناثرة من البادية شرق المدينة ومسلحون.
- انتهى موسم الحج ولم يرتب الإخوان أنفسهم، وعادت جدتي لوادي الفرع في سلام، لكن في الشهر التالي وصلت استغاثة من أمير (قائم مقام) الطائف للديوان، يحث فيها على نجدة حيث تجمع كثير من البدو المسلحين خارج سور مدينته. ثم اتصال آخر بأن الغطغط دخلوا الحوية وأفسدوا فيها. كان هناك خطان سلكيان من مكة، أحدهما للطائف والآخر لجدة ينقلان المحادثات الهاتفية. إضافة لمبرقات (تلغراف) لبث الرسائل المكتوبة بإشارة مورش، ويسميتها البسطاء "طار الهواء" لأنها لاسلكية. فأمر الحسين ولده علي بأخذ جنوده للصعود للطائف للدفاع عنها.
- رغم العلاقة الودية بين الوالد ورجال الديوان، إلا أنه لأمر ما كان الأمير علي أكبر أبناء الشريف، غير متوافق مع والدي في أكثر الحالات، بل ينسجم مع رفاقه ومجالسيه في قنصليات جدة! وليالي السمر والمؤانسة بها. وتوتر الأمر لما كلف الحسين والدي للذهاب لجدة لفحص مدافع رشاشه، اشتراها بعض صحب الأمير من إيطاليا، ولما عاد لهم وجد المكان يغص بالقرابة، والأمير علي ينظر إليه شزراً. أفادهم أبي أن المدافع ليست ممتازة ولكنها جيدة، رغم أنها تروكب الطلقات أحياناً، لكن المشكلة في الذخيرة حيث أن الطلقات رديئة، ويصدر منها رماد ثقيل ودخان كثيف، يسبب عرقلة التشغيل ويضعف القدرة على رؤية الهدف. وجواباً على سؤال سيدهم عن المتسبب في ذلك، أفاده أبي إن ذلك يوجه لقنصل إيطاليا، وللطويل (مدير الجمر) في جدة. لما تعذر من السقاف لعدم مرافقة الأمير علي للطائف، لأن دوره حراسة الملك ومنع التعدي عليه، وليس أعمال هجومية، لذا وافقوا وبقي في مكة عند الحسين، الذي كان يهدد أن البدو سيتفرقون عند مشاهدة الطائرات. لكن التوتر زاد في مكة بعد انقطاع سلك الهاتف، فأمروا الوالد بالتوجه للهدا للمساعدة في صد أي هجمات. ولما وصل هناك فوجئ بأبناء مروعة عن دخول الغطغط للطائف، ثم غادروها بعد قليل نحو الشمال، ولا يعلم إذا كانت الأحداث المروعة والمقتلة وسلب الأموال من فعلهم، أو قام بها السقاءون الذين يعرفون خبايا البيوت.
- بدأ ورفاقه في نصب المدافع والتمويه عليها، ثم جاءهم الأمير راكباً فرسه ومعه بطانته، ولحق بهم ضباط الجيش من بقايا القوات العثمانية، عرب الشام الكبير (خمس مناطق حالياً) والعراق واليمن، وأخذ الأمير يكيل السباب والشتائم للجميع. ثم جاء صاحب مزرعة واصطحبه لمنزله، بدلا من الخيام المنصوبة في العراء، وقرر ابن خثلان عدم جدوى بقاءه، فنزل مع كتيبته إلى الكر من موقعهم قرب الشيراتون حالياً.
- في الديوان بمكة قالوا ان الملك مختصر عند الحريم، وتلقى هناك أنباء محزنة عن فشل الطائرات التي أقلعت من جوار قشلة جدة، في صد هجوم الإخوان. وكان يقودها

- طيارون روس مسلمون (رحمانوف) وهي ليست مثل طائرات الإنجليز التي دمرت البدو في شرق الطائف قبل سنوات.
- بعد يومين أذنوا له للمثول بين يدي سيدهم في المجلس المختصر، فوجد عنده صهره وهو يفرك يديه ويقول "إيه يا صفر الخير" وحاول أبي أن يطمئنه أن الحال ستتحسن بحول الله.
- مضت أيام وعاد الأمير علي لوالده من الجبال الشرقية (الهدا وزيمة) مكسوراً، وكان الوحيد من أبنائه عنده في مكة المكرمة، أما فيصل فكان في الشام ثم العراق، وعبدالله في شرق الأردن، وزيد سائحاً في أوروبا برسم التعليم. سمع والدي الملك وهو يوبخ ولده لتقصيره مرتين، بل ويرمي عليه أقذع السباب والألفاظ النابية، والأمير لا ينبس بشفة وأكبر فيه ذلك كثيراً. بخاصة أنه قال له أن يرجع للطائف ولا يعود إلا منتصراً أو مقتولاً، فسلم عليه بأنها تحية المقتول.
- كلف الحسين والدي أن يرافق بعض أصهاره، في خرجات لمشايخ القبائل حول مكة، كانت تحمل السلاح والمال لإقناعهم بإرسال الرجال لمقاتلة الخوارج النجدية. أهم تلك الرحلات كانت للقناوي (رئيس زيمه) الذين ربطتهم بوالدي علاقة وثيقة، لما بعد ذلك بأكثر من خمسين سنة.
- تأثر الحسين لما أعلن قنصل الدول الكبرى في جده (فرنسا وهولندا وإيطاليا وروسيا) أن الخلاف بين نجد والحجاز حول المنع من الحج، مسألة داخلية بينهما ولا يتدخلون فيها، وسيبقون على الحياد ما لم يمس أحد من رعاياهم. ومكة تزدهم بهم سواء من تكارنة أو جاوة أو لوبيين أو داغستان. وبعد انتهاء شهر صفر بأيام أعلنت بريطانيا حيادها إزاء تلك الوقائع، فعلم أبي أن الأمر قد قُضي، بخاصة أن الخبر من الديوان أن الأمير علي، انهزم مرة ثالثة وولى هارباً إلى جدة.
- في وقت متأخر من الليل عاد لبيته ووجد رسالة عاجلة، تدعوه لحضور لقاء هام في الرواق اليماني قرب باب الحميدية، التقى الصبان ونفر من المكاوية في جدال حاد. حول ما جرى في جدة من اجتماع بعض كبارها، وإعدادهم كتاب يتوسلون فيه للحسين ان يتنازل عن الحكم لولده، حيث انهارت كافة قوات الحجاز، وإخوان الغطط في طريقهم لمكة التي قد يحدث فيها ما حدث بالطائف من مقتلة.
- فهم من مجلس أولئك الشباب أنهم يعترضون على الأمر، ولا يريدون بقاء الحسين ولا ولده، بل يطمحون لتأسيس دولة حجازية مستقلة، تقوم على أسس دستورية وديمقراطية! ويُنتخب حكامها من الشعب وليس بالوراثة الهاشمية.
- رفض التوقيع معهم على البيان (الغريب أديب) وقال إن الحجازيين يعتبرونه جاسوس والنجديون (الغطط) يرونه خائن، لذا فهو يعترض على كافة المقترحات وانصرف عنهم.
- توجه نحو باب الزيادة للتهجد، ثم غلبه نعاس شديد من تعب ذلك اليوم، ولما تفكر في الحال اغرورقت عيناه بالدموع، فقد أمضى سنوات يقدم فيها فكره وجهده وإخلاصه. واضطر لتحمل الإهانة والأوضاع الكريهة التي كدرت خاطره، لكنه ضحى بكل شيء

لكي يكسب نفسه موقع متميز. يمكنه فيه خدمة الدين ورواد البيت الحرام وعائلته، ويحقق بقية طموحاته وآماله، وفي لحظة واحدة ذهب كل ذلك هباء منثوراً. عزت عليه نفسه وخاف من قادم الأيام السوداء، وتفكر في جراءة شرانم من حضر الحجاز وبدو نجد، للتعدي على ملك العرب وخليفة الإسلام. سليل العترة النبوية الشريفة، وحفيد آل ابانمي سدنة الحرم لقرون، وكيف يخلعونه غير مبالين سوى بطموحات شخصية ضيقة.

● سمع نداء الفجر وردد ان الله أكبر من كل كبير، وأعظم من كل عظيم يهب لمن يشاء وينزع ممن يشاء سبحانه. وفي الديوان كانت الأمور ساكنة، والجميع يتظاهر أن جمعية جدة وحزب مكة لا يحكيون أمور ما، لكن الاتصالات كثيفة مع جدة التي لم ينقطع سلك هاتفها.

● في اليوم الثالث ارتجت مكة لأنباء اقتراب الإخوان، وان السلطان ابن سعود في الطريق إليها، بعد أن بلغه نبأ حياذ بريطانيا العظمى، حيث أن الشريف خالف اتفاهه معهم بعدم منح نفسه سلطة لاهوتية. حيث من رعاياه في العراق والشام يهود ونصارى وعبدة الشمس وغيرهم الوثنيين، وجعله خليفة إلهي تمنحه سلطة دينية جرى الغاءها من دساتير أوروبا، حيث المعابد تخضع لسلطة الحاكم وحده وليس العكس.

● علم أن وجهاء جدة (الطويل وزينل والدباغ ونصيف ورضا والصبان وشطا وقابل وباجبير) قد ائقنوا الحسين للتنازل عن العرش لولده علي، ليكون ملك الحجاز فقط وليس العرب كلهم! أما شباب مكة فاستمروا في جدالهم حول التخلص من حكم الأشراف كله، ويعرف والدي منهم (الصبان وراجح وهزاز وكردى والفضل) لكنه لم يشارك في حواراتهم. وقد أخبرني أن هناك اثنان باسم الصبان (أحدهما مصري من جدة والثاني صومالي من مكة) أما زينل ورضا فهما في الأصل أسرة واحدة من أصول (هندو إيرانية) واحدة هم آل زين الرضا ثم انقسموا. أما الفضل فهو من الثوريين سبعان عنيزة، ولديهم مكتب تجاري في الحجاز، وتولى عبدالله مجلس وكلاء الحجاز بعدها بسنوات، وبقيت علاقته بهم وثيقة لحين وفاته، كما هو مفصل في صلب السيرة.

● وصلته أنباء ان حريم الحسين وخدمه قد غادروا إلى جدة، وأن الملك (السابق أو المخلوع أو المتنازل أو الشريف أو خليفة الإسلام أو حامي حمى الحرمين) يتأهب للرحيل من جوار البيت الحرام. وفي اليوم التالي استدعاه الحسين لمجلس خلوته في الديوان، فوجد عنده الشريف عبدالله شرف (صهره) وبعض القرابة، وأمره أن يستعد مع نخبة من كتبيته لأخذ "عازات" من الدهليز التحتاني، ويتوجهوا بها إلى قشلاق جرول.

● دخل لأول مرة السرداب (القبو) أسفل القصر، الذي كان يقال إنه سجن كرية ليس فيه إلا التتكيل والمعاناة، فوجد مخزن به صفائح مختومة من أعلى بالرصاص، ومن الأسفل بالشمع الأحمر. حملوا مع ممالك الحسين العشرات منها، وتوجهوا بالشقادف

مع كتيبة من الداغستان غرباً. وبعد يومين وصلوا مصلى العيد في جدة، وأمرهم الشريف عدنان بالتوجه نحو بحيرة الأربعين، ثم انصرفوا نحو الميناء.

● بعد ساعات استدعوا رئيس الكتيبة الشرقية وتلك البخارية والمغربية، وصعدوا إلى مجلس في يخت الرقمتين، حيث جلس الحسين وحوله قرابته وأعوانه، يبدو عليه انشراح باهت. شكرهم وأمر بتسليم كل منهم صرة نقود، ليدفعوا مستحقات الجنود معهم، فصاح أحد القادة أن ذلك لا يسدد رواتبهم المتأخرة، فرد عليه أن يمنحهم السلاح والذخيرة مقابل ذلك. لكن الرجل رد أن السلاح في أيديهم وقد يصعدون للسفينة لأخذ مستحقاتهم، فزادهم بعض الشيء، وعند الانصراف أشار بخنصره لأحد مماليكه. عند نزول أبي لحقه الخادم وأمره بصرف أعضاء كتيبته، ومعظمهم من سبعان الفرع وقحاطين اليمامة وبعض بني تميم.

● لما عاد لمجلس الحسين ناداه "ياولدي عبدالله" لأول مرة، وكان قبل ذلك يناديه يا ابني ثم أمر أحد أعوانه فدفع له مغلف، قال أن فيه تذكرة اركاب للسودان، وتذكرة مرور وتعريف منه مصدق من قنصل بريطانيا، ومعها ريبالات هاشمية فضية وجنيهاات ذهب، ثم شكره قائلاً "هذي كماله" وكررها!

● بقي على موعد السفينة يومان فقط، فهرول لمكة وحيداً لتدبير أموره الباقية، وهناك التقى بأحد عتبان المعابدة، الذي نصحه بالبقاء حيث الإخوان على أطراف مكة، وقائدهم سلطان الدين الذي يناكف أمير نجد بهذا اللقب، لما سمي نفسه سلطان نجد، بعد سقوط السلطنة العثمانية. وأفاده أنه على علاقة جيدة، مع سلطان بن بجاد بن هندي بن حميد المقاطي، وأخوه جهجاه وقريبهم ابن خثيلة المقاطي. وهم قادة الغطط من عتبية الحجاز، وقريتهم (هجره) في المزاحمية، التي تبعد مسيرة يوم عن حائر سبيع. لكن والدي اعتذر حيث عرض عليه بعض سبعان رنية والسهول والبقوم والقحاطين مثل ذلك، للانضمام معهم تحت قيادة الأشراف من الخرمة ابن لؤي والعبدي، وهم جميعاً من الإخوان والمتدينة.

● صفى أموره في مكة سريعاً وركب السفينة من جدة إلى بور سودان، ولما ناظر منازل البلدة المتلاصقة وهي تبتعد عنه، شعر بالقلق لمصيره في ظل تلك الأحوال الخطيرة في الحجاز. وتلى قوله تعالى "إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد" وسأله أن يعيده للحرم في حال أطيّب، كما تذكر سنينه السبع مع الشريف حسين، الذي استخلص العبر من أفكاره وأعماله وورطاته، وبقي محب له بقدر لا يماثله إلا توقيره لفيصل بن عبدالعزيز، الذي أمضى معه نحو نصف قرن. ولا شك ان الأحبة يعلمون ان الحسين هذا هو جد الملك طلال جد ملك الأردن حالياً، رحم الله موتى المسلمين وغفر لهم.

● كان معهم في البحر أخلاط من الناس ذوي مشارب متنوعة، وحدثت مشادات حادة بين بعضهم، تعرضوا فيها للشريف حسين وولده الملك علي. كان منهم رهط من حزب الحجاز يسبون آل أبانمي، ورد عليهم مصريون بأنهم "بلاشفة" أي شيوعيون ولا دينيون، وكادوا ينتشابكون بالأيدي.

- تعرف على أحدهم الملتحي ويلقبه رفاقه السُّني، وكان يعمل في نقل الطعام إلى قرب جزيرة سعد غرب جدة، وتطورت علاقته مع والدي، الذي نصحه بالرد عليهم بقصيدة الفرزدق بتصريف بدلاً من الملاسنة:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته

والبيت يعرفه والحل والحرم

هذا من خير عباد الله كلهم

هذا التقي النقي الطاهر العلم

هذا سبط فاطمة إن كنت تجهله

بجده أنبياء الله قد ختموا

إذا رأته قريش قال قائلها

عند مكارم هذا ينتهي الكرم

وقد كان كثير من المكاويه التركستان والسندستان يدعون أنهم من قريش، وربما أنهم أمناء على أنسابهم؟

- دخل في علاقة تمويل وتجارة مع السُّني، وبحث عن أماكن لتعلم المزيد عن فقه مالك، كما رغب تعلم الإنجليزية حيث تضاءلت لغة الترك بعد سقوط دولة بني عثمان. لكنه لم يجد ما هو جيد، كما أن البلدة ذات سكان بسطاء بعضهم حفاة وفقراء، وأوصاه أحد الرفاق بعد شهور للتوجه نحو عدن. بخاصة أن الحسين قد ترك الأردن، وذهب إلى قبرص خلاف ما ذكر عن عودته بعد شهور، حيث عاش سنوات مريضاً حتى مات.
- هناك وجد ميناء يكتظ بالسفن التي تسير بالبخر (بواخر) وتعبّر البحر المحيط، والبلدة مرتبة ونظيفة نسبياً. إلا أن وجود جمهرة من أعضاء حزب الحجاز، جعله يضيق بالمكان، لشدة صخبهم وجدالهم الفارغ. درس الفقه الشافعي والإنجليزية، لكنه كان في سأم وخطط للذهاب للعراق أو الشام. ولما وجد في أوراقه رسالة من زمن مكة، عليها عنوان البرق لمحل الفضل في بومبي، أرسل تلغراف وجاءه رد الترحيب سريعاً.
- أعجبت به بوابة الهند وفيها الثراء الفاحش والفقير المدقع، والعربية المعدومة والإسلام قليل، وغالبية الناس هندوك أو بوذية أو نصارى. في ديوانية آل فضل تعرف على رجال من القصيم والعارض، منهم سبعان وقحاطين وتميم. انتحى به أحدهم وعرض

عليه العمل معه في المطبعة، التي تجهز كتب للبيع في نجد، لأن العمال غير العرب يخطون الملازم أحياناً قبل التجليد، ويرغب من يدقق ترتيب الصفحات حتى لا تتلف.

● رغم تحسسه من الأحبار والورق، إلا أنه وازب على العمل بهمة، واستمتع بقراءة المسودات ومراجعة الكتب والمخطوطات، وبعد شهر قرر الرجل أن يفتح مطبعة أخرى في كراتشي، البعيدة شمالاً عن بومبي حيث يكتبون الأردية، ذات الحروف المشابهة للعربية وليست سنسكريتية. وعمل مديراً لتلك المطبعة الحاوية معدات جديدة مطورة. وشاهد مجلة قديمة عند أحدهم، فيها قصيدة يهجوا فيها الزركلي الحسين وأنجاله:

صبر العظيم على العظيم

جبار زمزم والحطيم

ودّع قصور أبانميّ

لست فيها بالمقيم

سهم رماك الأقربون به

فغغل في الصميم

ما في العروش على

الجهالة والغباء بمستقيم

بنيت مدارس ما ينقص

حسنهن سوى التعليم

وأسف لذلك حيث كان قائلها يعمل في ديوان الحسين، ثم ذهب مع ولده الأمير عبدالله للأردن كناظر للتعليم، ولما اختلف معه نقده بفحش وذهب لمصر، وعاونه الشريف لبناء مطبعة، ثم استغلها لوضع كتب تسيء له، وها هو يتغزل بابن سعود؟

● كان والدي يجمع أغراضه للتوجه إلى لوكناو، لتأسيس مطبعة جديدة هناك، وجاءهم الصديق عبدالله الفضل من البحرين، وطلب منه سرعة التوجه لمكة. حيث أن الحجاز بعد مغادرة الشريف، ثم حصار ولده علي سنة في جده خرج منها، وصار سلطان نجد (عبدالعزیز) ملك الحجاز. ولما طالبه أهلها بمجلس نيابي (برلمان) ودستور، قال إن القرآن يكفي لذلك، واستدعى ولده الثاني (فيصل) من الرياض وجعله نائب له في الحجاز، ووجهه لتسمية ديوانه "مجلس النيابة" كبديل لذلك. وقد كان الفيصل يبحث عن رجال من أهل الثقة والمعرفة، ليعتمد عليهم في إدارة الحجاز.

- رتب ابن خثلان إرسال الكتب إلى البحرين والكويت وقطر ونجد والحجاز، وبعد بضعة أيام كان على متن باخرة ضخمة متجهة إلى عدن، وبعدها توجه نحو رأس الرجاء الصالح ثم أمريكا. ثم بحث عن سفينة أصغر نقلته للقنفذة، حيث تخوف من التوجه مباشرة إلى جدة.
- أحرم بالعمرة من يللم وأدى المناسك متخفياً مرتاب، وفي ضحى الغد توجه للنيابة في الغزة، بعد أن اطمأن على أن بعض أعضاء حزب الحجاز "النشاز" المعارضين دخول قوات نجد إلى مكة لحمايتها، قد تعينوا في مناصب حكومية، وحتى من فر منهم لدول أخرى معادية، أرسل لهم بالأمان ليعودوا لأرضهم في طمأنينة.
- التقاه الفيصل بحفاوة، وقال إن بعض عُمد أحياء مكة قد أثتوا عليه، وكلفه أن يياشر فوراً في معاونة مدير الشرطة الشامي، لكبح جماح بعض الإخوان الذين ينهون عن المنكر بأسلوب منكر. ويضايقون رواد المسجد الحرام، ولا يحترمون شعائر الطوائف الإسلامية التي لا تتناقض السنة المطهرة. وتخفى عليهم المفاصد والفسوق في بعض المنازل الواقعة بين المسعى والحرم.
- بعد شهور عرض عليه برقيات مندوب الملك لدى الإمام الإدريسي، عن بعض الإشكالات في صيبيا وفرسان. وأوجز له الحال بأن ادعاء الأشراف أنهم ملوك العرب، جعل والدهم الحسين يطمح لمد نفوذه من الشام حتى الطائف. لكنه اصطدم في جنوبها بدولة قوية (إمارة آل عايش) في عسير، وهم من سلالة أبو سفيان أصحاب الدولة الأموية، الذين بطش بهم العباسيون فاعتصموا بتلك الجبال. ورغب الحسين في إدخال عسير ضمن ملكه، وقاد بنفسه حملات عسكرية شارك في بعضها حفدة الإمام أبو هلا، لكنها فشلت وبقي آل عايش يعادون الأشراف وآل سعود. لذا أرسل مولاي (الملك عبدالعزيز) حملات ضدهم، كانت آخرها بقيادتي، وتمكنا من ضم عسير للحكم السعودي. وكان جنوبها دولة أخرى سنية هي المخلاف السليماني (صيبيا) يحكمها الإمام الإدريسي، الذي انتهز الفرصة واستولى على بعض مرتفعات عسير وموائنها. لكنه لما رأى قوة الموقف السعودي، وخاف من أطماع الدولة الشيعية جنوبه، التي يحكمها الإمام اليمني يحيى المتوكل، أرسل للرياض يطلب الحماية من الزيدية والروافض. ووقعت اتفاقية بأن يبقى الإدريسي متصرف الشؤون الداخلية في المخلاف، ويرسل مولاي الملك مندوب سامي يتولى الشؤون الخارجية والدفاع. لكن في الآونة الأخيرة تغيرت مشاعر الإمام الإدريسي، واختلف مع مندوب الملك وطلب استبداله، وسوف أرسل للرياض ترشيحك لتولي ذلك بدلاً منه.
- قبل سفره إلى صيبيا جلس مع الفيصل، الذي بين له مغزى عمله هناك، وهو أخذ الإدريسي بالحكمة والصبر والتغاضي عن الصغائر، حيث تواجه البلاد آنذاك جبهتي هجوم. أولها في تبوك وتيماء حيث أخذ أمير الأردن عبدالله بن الحسين، وملك مصر فؤاد يرسلان السلاح والمال لبعض العصاة (احرار الحجاز!) لكي يقضوا على الحكم السعودي. وقد استعانوا برجال من قادة العشائر هناك، مثل البلوي ورفادة وأبو تايه، الذين شنوا هجمات على القوات السعودية في الشمال. والأزمة الأخرى هي الإخوان في

شمال نجد، الذين طلبوا إمارة المدينة المنورة للدويش، ومكة المكرمة لابن بجاد والطائف لابن حثلين، وقد قطعوا الطرق قرب الكويت والعراق، ولا يريد الملك أي مزيد من القلاقل مع الإدريسي.

● أمضى ابن خثلان الشهر يمسك شعرة معاوية، مع الإمام (السيد الحسين) الإدريسي، يتلافى حدوث فرقة معه، تشغل الملك عبدالعزيز وولده الأمير فيصل عن مكافحة الفتن الكبرى. لم يكن ذلك سهلاً مع شخص غريب الأطوار متقلب المزاج ومتناقض المصالح، لكنه تمكن بتوفيق الله من تسكين الأحوال. وفي الأونة الأخيرة تفاقمت الإشكالات بين إيطاليا وبريطانيا، حيث الأولى لها سيطرة على ساحل غرب البحر الأحمر، المواجهة لمرفأ جيزان وجزيرة فرسان، والثانية لا تريد للحبشة أن تؤثر على خط الملاحة من السويس للهند المار بعدن. وكانت العلاقة مع إيطاليا مبهمة في نظر الإدريسي، فهو مجرد تجارة داخلية بين بعض رعاياه، وتجار الحبشة الموردين لإيطاليا الوقود والطعام، في خرق للحظر الدولي، لذا اعتذر عن الاستمرار في تلك المهمة بخاصة بعد القضاء على الإخوان وابن رفاة.

● أرسل إلى المخلاف أحد "رجايل الشيوخ" ولم ينسجم معه الإدريسي، وطلب استبداله فجاء آخر لشهور ثم غيره. وحيث أن أسلاف الإمام جاءوا من المغرب، وسكن بعضهم لفترة طويلة في بلاد السودان والنوبة، وتأثروا في الشكل والمضمون والطباع بالأفارقة، لذا فرض والدي العودة للمخلاف مادام أن إمامهم حاد الطباع وحاد المزاج.

● في تلك الحقبة استبشر الأهالي بإعلان قيام المملكة العربية السعودية، بدلاً من الاسم القديم الجرار المعاني والمشجع على المناطقية في الملحقات! وتخوف البعض من خلاف على ولاية العهد بين أكبر إخوة الملك أو أكبر أولاده.

● لما أعادوا إلى الإدريسي "رجل الشيوخ" استشاط غضباً وعد ذلك امتهان له، وحدثت بينهما ملاسنة بذينة أدت إلى أن يقرر الإمام سجن مندوب الملك، الذي تحصن في قلعة البرقية مع مرافقيه.

● شعر الفيصل في مكة أن ذلك يدخل ضمن صلاحيته، حيث هو نائب الملك في الحجاز الذي يمتد في تقديره من الحديدية إلى العقبة شمالاً. وكلف أحد ضباط العثمانيين (جودت) الذي رفض المغادرة مع فخري باشا، وبقي مع الحسين حتى دخلت القوات السعودية مكة فأعلن ولائه لابن سعود، لكي يرتب إرسال العساكر النظاميين مع مصفحات إلى المخلاف. كما أمر والدي بتجهيز كتيبة من مجاهدي العرب، للسفر بحراً نحو ميناء المخلاف جيزان. لكن بعد أيام علم أن الرياض قررت إرسال موفد حاكم ليبيا السنوسي للتوسط في الأمر، وهو شاب وسيم (قرقللي) ذو نشأة أوروبية (إيطاليا) لكن الإدريسي لم يركن للسلم. رغم أنه والسنوسي وأشرف مكة والمتوكل إمام اليمن، ينتسبون لسبطي النبي عليه الصلاة والسلام، وغالبيتهم من سلالة النفس الزكية أو المحض حفيد الحسن بن علي.

● لما فشل الحل السياسي بدأت تجهيزات العساكر، ومرة أخرى قررت الرياض إرسال قوات لا تتبع الفيصل، فجاءت جموع تحت راية الشريف ابن لؤي، الذي مات في

الطريق. مما أحدث خلخلة في القرارات، واضطراب بين جموع المقاتلين المشتتين، وتسبب ذلك في انتهاكات جسيمة للمدنيين واعتداءات مشينة، بلغت وسائل الإعلام في جنيف حيث عصبة الأمم. كما فر الإدريسي للجبال شرق صيبا ونظم مقاومة مسلحة هناك، حيث قرابته ومريديه يعاونونه في تصرفاته.

- قرر الملك عبدالعزيز إرسال جيش منظم، يقوده الأمير ابن مساعد الجلوي، فسكنت الفوضى وبدأت أعمال البحث عن الإدريسي لاعتقاله جراء عصيانه. لكنه فر إلى عدوه السابق الإمام يحيى حميد الدين الشيعي في اليمن، وأرسلت له عن طريق عدن أموال وأسلحة من حكام الأردن ومصر، حيث يطمح ثلاثتهم للسيطرة على الحرمين وادعاء الخلافة.

- تشجع إمام اليمن وتهور بالتحرش بالقوات السعودية على حدوده الشمالية، فأضطر ابن سعود لشن حرب دفاعية لصد عدوانه، وهنا تلقى الفيصل أمر والده بسرعة التوجه للحدود مع اليمن، ودفع هجومهم علينا واستعادة ميدي والحديدة، التي احتلها يحيى من جد الإدريسي قبل ٣٠ سنة.

- غادر عساكر الجيش مع جودت بالبر في سيارات كبيرة، وبقي الختلان مع الفيصل لحين انتهاء أيام الحج، خشية أن يثير بعض اليمنيون قلاقل فيه، ثم غادروا سريعا بالبحر. ولما وصلوا المضايأ جندوا بعض الأهالي، الذين يوقرون ثلاثة أشياء، الذهب والفضة ثم العشيرة ثم مفتي الطريقة، لكن الغالبية تقاعست لما عانوه من حروب العايض والأدارة والمتوكلية خلال السنوات الماضية.

- اتجهوا جنوباً (مسيرة الساعتين) نحو جيزان، فوجدوا جودت قد تجاوزها ووصل مشارف ميدي، فكانت الركائب أسرع من السيارات في رمال السواحل بتهامة. وأمر فيصل بأن يتركوا البلدة على ميمنتهم، وأسرعوا نحو الحديدة المحصنة، وبعد نضال شاق هربت حاميتها من الزيود نحو الجبال الشرقية، ودخلتها القوات السعودية وبسطت فيها الأمن والرخاء.

- اقترح والدي القضاء على فلول جيش الإمام يحيى، حتى لا يشكلوا عصابات تكدر الأمن، فأرسله الفيصل مع كتبية من أهل العارض وسكان المنطقة، حيث صعدها الهضاب العالية والتلال الوعرة والجبال الشاهقة حتى وصلوا زبيد قرب صنعاء. وتمكنوا من منع المخربين عن شن هجمات على السهول وساحل البحر، وأصيب ابن ختلان في ساقه وبطنه، لكنه رغم ذلك استمر في قيادة الحملة.

- كانت تردهم أنباء عن تحرك علماء المسلمين للوساطة بين الملك عبدالعزيز والإمام يحيى، لوقف القتال وإجراء صلح، حتى يتفرغ القوم لمكافحة أطماع الصهاينة في دولة لهم بالشام، أسوة بما حصل عليه النصاري في لبنان. وكان من بين الوسطاء من يميلون إلى آل حميد الدين من شيعة الزيود، بل إن بعضهم اقترحوا مبايعة يحيى ليكون خليفة المسلمين، بعد ان اغاها اتاتورك وتخلي الشريف حسين وأولاده عنها.

- كان الملك عبدالعزيز يحرص على حقن دماء أهل القبلة، وفوض رابع أولاده (خالد) لينوب عنه في مفاوضات الطائف. التي أسفرت عن تخلي الإمام عن نجران التي لم تكن

في ولايته! على أن تنسحب السعودية من ميدي والحديدة التابعة للمخلاف، وأن يسلم الإدريسي المسجون ليفصل.

• كان آخر مندوب للملك لدى الإدريسي هو الشويعر، وكان يؤمل تولي إمارة جيزان بعد ضمها للديار السعودية، لكن الوشاة تدخلوا لتضخيم أي زلة عمل أو قول. فوصلته برقية توبيخ من الرياض، فلما قرأها غشي عليه ولقي ربه، وكانت له أعمال لا تنكر في المخلاف السليماني، ولكن قول معاوية صحيح حول "غضب السلاطين كالأطفال وبطشهم كالأسود" ويا ليت والدي أخذ عبرة من ذلك، لكنه فشل في الاستيعاب والتنبه، فأصابه ما جرى له بعد فترة قصيرة!

• قرر الفيصل تعيينه أميراً على جيزان، بعد أن شارك في استلام الإدريسي من اليمينيين، وأرسله في زورق إلى جدة. حيث عاش مكرماً، وكذلك أفراد أسرته ممن اختاروا الجنسية (التابعة) السعودية، ومنهم آخرون توجهوا إلى عدن، وبعضهم حصل على جنسية بريطانيا أو دول أخرى.

• عندما باشر أول مهامه في جيزان، سعى لضبط الأمن ومحاربة الفقر ونبذ البدع. فطلب مدد من المقاتلين الأشداء من أمير عسير، وقضى على القلاقل التي يثيرها أقارب ومريدي الإدريسي في جبال الريث (شرق صبيا) فهذأت الحال قليلاً. كما طلب تقديم ثلاث وجبات مطبوخة كل أسبوع للمعوزين الجائعين، أسوة بقصر تليم في الرياض. مع كميات من الحنطة والذرة والأرز، تعطى للمحتاجين كل جمعة، كما أنشاء مركز صحي به ممرض عدني للرعاية المجانية. طلب عدد من الواعظين لتقديم دروس في المساجد، وفتح مدرستين لتعلم الصغار القرآن والسنة والقراءة والكتابة، كما فتح مكتبة تجلب الصحف والكتب من أسمره، سواء للاطلاع أو للشراء والاستعارة. كلف معاونيه للرقابة على جهات التحكيم والقضاء الشرعي، لفض النزاعات بأسلوب عادل ونظامي، وآخرون للإشراف على الأسواق، وحث التجار على جلب السلع الضرورية ومحاربة التهريب والاحتكار. مبنى الإمارة تمت توسعته وأضيف له برجان أحدهما لهوائي البرقية، والثاني لترفرع عليه راية التوحيد السعودية.

• وصلتهم لجنة تفتيش أخرى وعمم على الجميع التعاون معهم، وفي الهزيع الأخير من الليل جاء بعضهم مع نفر من الحرس، وأمره أن يصحبهم للتوجه إلى جدة فجراً هو وأسرته. حاول معرفة السبب لكنهم رفضوا، وفي المرفأ ربطوه وأهانوه وتعطل الزورق عن المغادرة، وبقي في الشمس وتجمع الناس حولهم. جاء قرابته وتجادلوا مع أعضاء اللجنة حول أخذ العائلة، وافقوا على تركهم في المدينة، وبعد الظهر اركبوه الزورق المتهالك والمشابه لما سبق أن رحل فيه الإدريسي. بقي ابن خثلان صامتاً يسترجع ويحوقل، غير راغب في النطق بأي كلام معهم، وتعرضوا لأهوال عاصفة بحرية كادت تجرفهم شرقاً نحو شعاب مرجانية خطيرة، لكنهم بعد أيام وصلوا مكة عبر ميناء جدة.

• وضعوه في مكان منعزل ومرتب لكنه سجن أو "دار توقيف" فالباب حديدي موصل، عليه حارس ضخم الجثة قليل الفكر، والنوافذ عليها شبك معدني. الشخص الوحيد الذي يراه هو ذلك الدلخ، الذي يتحدث بغلظة وغباء وينتقص الجميع، لأنهم لم يساعده في حياته،

بما في ذلك والده السجان العجوز، الذي دبر له العمل بعد أن فشل في أعماله الأخرى. كان ذلك الغليظ يحضر له الطعام، ويفرض عليه الاستماع لشكواه من جميع البشر، ولا يقبل أن يقال له أن مشكلته في نفسه وتصرفاته، وأنه يعاني "خمول وخداع وخيبة وخيانة" حيث شاهده يختلس بعض الحاجيات.

• ذات يوم وهو يفكر في حاله، وفي جواب السؤال الذي يدور في ذهنه، منذ بدء تلك المأساة، دخل عليه ذلك الحارس "الغشيم المتعافي" وصاح به أن يستعد للخروج يوم الجمعة القادم، حيث سيقطعون رأسه في العدل. ثم عاد السؤال يدور في رأسه، لماذا كل هذا؟ وهل عمل ما يستحق ذلك؟ أو أنه في كابوس مزعج! فأخذ يركن للدعاء وتلاوة كتاب الله، ومحاولة استرجاع الذكرى لأي تصرف خاطئ بدر منه. ثم ركن نحو شعر لبيد الصحابي المخضرم، وهو من هوازن أسلاف قبيلة سبيع، لما أنشد:

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع

وتبقى الجبال بعدنا والمصانع

انزع مما أحدث الدهر بالفتى

وأي كريم لم تصبه القوارع

لعمرك ما تدري الضوارب بالحصى

ولا زاجرات الطير ما الله صانع

وبقي يتذكر كلام الله ونبيه وحكم الأولين، ويسأل الله العفو والعافية والرضوان، والفوز بالجنة والنجاة من النيران.

• بعد يومين جاءه أول زائر في محبسه، وهو رجل من عتبان برقا، سبق أن التقى به عند عمدة المعابدة، وله به معرفة سطحية قديمة. تطرق الحديث لسبب ما جرى لوالدي، فعاتبه برقة على كلمات قالها للجنة التفتيش الأولى، لما ذكر أنهم قد تمزقت بطونهم وتحطمت أقدامهم، صاعدون نحو صنعاء من زييد. ولم تصلهم من الملك سوى برقيات الانسحاب، وكانت المنطقة كفرس هائجة شاردة، ولما شددنا رسنها يستكثر علينا بيت وسيارة وجريدة؟ وأنهم ذكروا له أنك قلت عن ادخال ديار في ملكه لم تطأها قدمه البتة. أنكروا والدي ذاك القول وأفاده أن تلك من نميمة الوشاة، الطامعين في الرئاسة الحاقدين على أهل القبلة، مثل من أوصلوا الأكاذيب عن الأمير حمد قبل وفاته. وأضاف أنه كان في مكة لما دخلتها قوات الإخوان، ثم صارت في حكم عبدالعزيز ولم تطأها قدمه من قبل، وأعلم أن الله قد منحه الظفر بلا قتال، وعندما رأيته أول مرة في الحابر قبل أكثر من ثلاثين سنة، عرفت من "العيون والسنون" أنه موفق مظفر.

- قال الرجل أن إخوة الحقباني، قد شملهم الفيصل بعطفه، وقد تعينوا في وظائف حكومية، بغض النظر عما ورد للملك عن الأمر. أما أنت فتعلم جيداً ان ابن سعود لا يقبل أي منة عليه سوى من خالقه، وعندما قال له بعض الإخوان ان ابن بجاد هو من يستحق إمارة مكة والدويش إمارة المدينة وابن حثلين الطائف، وهو وأولاده سعود وفيصل ومحمد لهم جدة، التي حاصرها وفتحت على يده وتولاها. ما كان جوابه سوى "وعدكم السبلة" الشهر القادم. وأنت يا بوخالد أفهم الناس بما جرى لهم، وكان المؤمل ان تتفادى أي لفظ أو إشارة تسيء لك قبل أي شخص آخر، وتسرع مبغضيك وتجرك لأمر كريهة.
- بعد أيام جاءت والدته في بكاء وعويل، وأنها قبل طلوع شمس كل يوم تجلس في حفرة الملتزم، تدعوا الله ان ينزل نقمته على من سبب له هذا، وتتذكر أن اثنان من إختوها أعدما في الأفلاج (زمن فتنة الحريق ١٣٢٨ هـ) وهم لم يشاركوا في الأعمال الخسيسة ضد المسلمين، لكنهم خرجوا من البلدة في رفقة القرابة. بذل جهده كي يطمأنها ويهدئ روعها، وبين ان الله يرعى جميع خلقه، وأخوه رشيد وأخته هيا في خدمتها مادام في محبسه. وأنشد:

متكلمة والدمع سكب مبادر

وقد شرقت بالدمع منها المحاجر

فياليت شعري من بأجباد بعدنا

أقام بمفضى سيله والظواهر

كان لم يكن بين الحجون والصفاء

أنيس ولم يسمر بمكة سامر

فهل فرج أت بشيء نحبه

وهل جزع منجيك مما تحاذر

- انفتحت الزيارات وأرسل البعض طعام فاخر كثير، كان من حظ الحراس حيث لم يكن يشتهي الأكل، وتسهلت الأمور بفضل الله. حيث التقى ووالدته الملك، ثم خرج بعدها للعمل التجاري فقط، والتفاصيل في كامل السيرة وبعضها في الملخص.
- شهد عام ١٣٥٥ هـ انتعاش تجارته، التي أوصاه بعض الرفاق والمحبين أن تكون في "الخيام والطعام" لأنها رائجة في مكة المشرفة. وأبت عليه عزة نفسه ان يزور ديوان

النيابة، لكي يجنب الفيصل أي حرج مع والده الملك رحمهم الله جميعاً، إلا أنه بعد شهرين جاء لمحلته أحد مرافقي الأمير، ومعه صرة جنيهاً قال إنها من قيمة خمسين خيمة، فرحب بذلك وأرسلها لهم مع هدية ثلاث خيام كبيرة وصيوان ضخم تصطف فيه أربع سيارات.

التقى في الحرم بأحد أعوان نائب الملك في الحجاز، الذي ابغاه التحيات ودعاه للمجلس ظهر الغد، هناك دعاه الفيصل لمكتبه وقال انه يعلم عن عزوفه عن العمل الحكومي، لكنه بحاجة لنفر من رجال ذوو "فكر وإخلاص" وهو منهم. وكلفه بأن يتولى معاونة موظفيه في أمرين، أولها رعاية بعض قضايا الإشكالات في ضواحي مكة وقراها، والثاني متابعة بعض شؤون الحرم وكبار رواده، ويمكنه الاستعانة ببعض الرجال الثقة غير المتفرغين، الذين سيدفع لهم مقابل جهودهم، ولن تؤثر تلك الأعمال على تجارته في مكة. كما كلفه العمل في قائم مقامية جدة، على أن يكون مكتبه خارج البلدة، في مبنى قلعة القشلاق شرق البحيرة، وذلك لتسوية بعض النزاعات الحساسة، وتلافي وصولها للقضاء أو المقام العالي!

- في السنوات التالية قام بمهام كثيرة، سواء للتوسط في قضايا بين الأعراب، التي لا يلزم تدخل الشرطة فيها، أما أعمال الحرم فكانت تشمل بعض الفقهاء المروجين للبدع، وضمان عدم مضايقة الزوار الرسميين. في بعض ليالي قليلة كان يقدم درس بعد المغرب، في الفقه الحنبلي والمالكي، المعتمد على النقل وليس العقل فقط.
- كان المسجد الحرام يعج بكثير من العلماء، على المذاهب المختلفة ولكل مريديه، يحضرون الدرس بعد الفجر أو قبل المغرب، ويشرف على ذلك الشيخ عبدالله بن حسن، ومن الأكثر علاقة بالوالد الخياط والوقاص، حيث دروسهم تبعث على الطمأنينة والسكون، وغيرهم من علماء اليمن وجاوة والمغرب، وبعضهم لديه مشاعر كريمة تجاه دعوة التوحيد النجدية.
- تبين أن بعض كبار الزوار يعانون صعوبة في السكن، حيث لا توجد فنادق، والمطوفون يستأجرون بيوت الكبار لفترة محدودة، لسكن ضيوف الدولة وإعاشتهم، وتتولى وزارة المالية تدبير مواصلاتهم بوسائل غير مريحة أحياناً. وكان الباشا طلعت حرب قد جاء قبل سنوات، بأفكار لعدة مشاريع مثل فرع بنك مصر وبناء لوكائدة، وسكة قطار وسفلة طريق جدة، لكن نقص التمويل وخلاف الملك مع فؤاد ملك مصر أدى إلى تأجيلها.
- كان الفيصل محرّج من شكاوى الشخصيات البارزة، لذا عهد لبعض أصحابه ذوو الثقافة الأوروبية من آل إبراهيم أدهم، وآخرون من الدول الإسلامية غير العربية، ليهتموا براحة أولئك الزوار في معيشتهم بجوار الحرم. ودور الوالد ينحصر في داخله، حيث بعض عمال سادن الكعبة يطمحون للعطايا، حتى يقوموا برعاية الضيوف، سواء في فتح أبوابها أو إهداء جزء من الكسوة، وإدخال البعض لحجرة المقام وشرب زمزم من موضع قدم الخليل. وكان يمنع عنهم أهل البدع، أو متدينة الغطط الذين يؤذون المسلمين بحجة التوحيد أو النهي عن المنكر.

● كبار مرتادي الحرم كانوا من بلاد الهند (الكبرى آنذاك) والجاوة والعجم والمغرب والأفارقة (تكارنة) والعرب، لكن الملك ونائبه في الحجاز يولون أقصى رعاية للمصريين. حيث كانت علاقة الدولتين متوترة، خاصة بعد تبادل إطلاق النار في منى أيام التشريق، مما أدى إلى مصرع العشرات قبل ثمان سنوات ومنع إرسال الكسوة. وكان فؤاد بعد سقوط خلافة الحسين، يطمع ان يكون الخليفة وهو كان ياور أمراء أوروبا، لكنه يرى نفسه أحق بها من ابن سعود الذي كان لاجئ بالكويت، وكلاهما ليس سليل العترة النبوية الشريفة.

● عند نهاية عقد الخمسينات تحسنت أحوال مكة، حيث افتتح فندق مصر بتعاون من بنكها، مع أحد كبار تجار مكة الأشوام (الكَعكي) وجاء للحرم بعض رجالات مصر وأدباءها، الذين كان الملك يعول على تحسينهم للعلاقة مع مليكهم، ومنهم حسين هيكل (ليس حسنين كذوب أهرام الناصرية) وأرسلان (الدرزي السني!) والمازني، وفي هذا الموقع نبذة عما كتبه أحدهم عن الوالد، ورفاقه وبعضهم من أهل الحريق.

● في تلك الحقبة لم يقتصر عمله على رعاية كبار ضيوف الدولة في الحرم، بل كان بعض أهل نجد يزورونه حين حضورهم للحجاز، ونذكر في هذه النبذة نزر يسير عنهم، وفي صلب السيرة وفي الملخص يوجد المزيد لمن أراد. حضر جماعة من الخرج مثل الكثير غيرهم، لكن معهم شاب ضعيف البصر قوي الإدراك والحفظ، عرف الوالد جده الذي يعمل في نخل أحد سبعان المحمدي (الدلم) وأبوه مزارع وقور ذو ورع، وكان ابن باز يريد طلب المزيد من العلم. وتوجه به نحو حلقة سعد الوقاص البخاري، وأعجب به وطلب من أبي أن يجالسه في غير المكان العام. فرتب له ذلك في دكان الشيخ واستمر ينهل من معارفه، حتى عاد مع أهله لنجد ونبغ في العلوم الشرعية، وبعد خمسين سنة كان الباز مفتي المملكة. وقد عرفه أيضاً على بعض أئمة الحرم (الخياط وأبو السمح) الذين لهم علاقة مع أبي، إلا أن الأوثق منها علاقته مع أحمد علي الكاظمي (عديل الخياط) الذي يشاركه في التدريس. بعد أن أنشاء الملك مدرسة لأنجاله، وكان لديه المام باللغة الإنجليزية والفرنسية والجغرافيا، وارتبط مع والدي في صداقة وتعاون لعشرات السنين، وقد كتب مقالة في المنهل لتأبين والدي رحمهم الله جميعاً.

● من بين الحضور لمكة جماعة من قرابة أخوال الفيصل، لأمر ما تقرر ان يغادروا الرياض للحجاز، وبعدها عزموا على الإقامة في الطائف. والتردد على الحرم عند الاقتضاء، وقد طلب منه سمو النائب عمل ترتيبات معينة لهم! وكانت بعض سيداتهم تزور والدتي في رمضان وتعلمت منها القرآن.

● في عام ٥٧هـ شارك مع نفر محدد في تعزية نائب الملك لوفاة زوج شقيقته الوحيدة (نورة الأولى) وحزن كثيراً لذلك الحادث الغريب الذي وقع جوار حفر العطش (الصمان) من أراضي معظمها لقبيلة سبيع، وتداخل مع المطران والقحاطين. وحدثه البعض عن أمور مزعجة رأى أنه لا علاقة له بها، لكن بعد فترة استدعاه الفيصل فوجده مكتئب، وأمره أن يرتب بعض أمور معيشة أبناء شقيقته، بعيداً عن منطقة سكنه في "جباد". حيث تكتظ مكة بالمتناقضات، ففيها كثير من المتدينة المتزمتين، كما يوجد بعض المتحررين ذوو مجالس

العبث والدخان. كانت الأميرة في حالة كدر شديد لمصرع زوجها، وأثر ذلك على نريتها رحمها الله. وقد جاء لمكة أحد إخوة زوجها، وآخرين كانوا يزمعون مغادرة البلاد واعدوا للرياض، أما والده فبقي في الحبونية حتى توفي بعد سنوات قليلة؟

- في مطلع عقد الستينات (١٣٦١هـ) كانت تجارته قد توسعت، فأضاف لها الثياب والأواني المنزلية من النوعيات الفاخرة، واستدعت أعماله فتح مكتب في جدة، قرب الميناء وبعيد عن عمله في القشلة، وبعدها أضاف مستودع في الطائف، حيث تنتعش الحركة صيفاً.

- توقف اللغط ولغو الكلام في مكة عن قضية ولاية العهد، المستمر متقطعاً منذ سنوات ثم يبرز، وانتعشت إيرادات الملك بعد تصدير كميات كبيرة من زيت القطران (البترول) عبر فرضة كبيرة تضخه لسفن ضخمة، ويباع بسعر جيد يعادل أكثر من ثلاثة أضعاف تكلفة استخراج.

- حدث قلق في الأسواق لما بدأت أعمال حربية في وسط أوروبا، بين ألمانيا وإيطاليا من جهة وفرنسا وبريطانيا من جهة أخرى. واستهان البعض بها على أنها مناوشات صيفية عارضة، واضطر ابن خثلان لطلب المزيد من البضائع تحوطاً لانقطاع السبل البحرية، كما جرى في الحرب العظمى قبل عشرين سنة، وعم غلاء الأسعار رغم توفر السلع.

- تقدم بالعزاء لنائب الملك (فيصل) في وفاة أكبر أعمامه (محمد) وجد أبناء شقيقته الوحيدة، الذي مات كمداً بعد خمس سنوات من مصرع ولده خالد في حادث. وكان الأمير محمد آخر من تبقى في "دائرة النفوذ الثلاثية" التي كانت أحياناً يعارض بعضها خطط الملك عبدالعزيز، سواء كان ذلك بعد ساعات من دخوله الرياض عام ١٣١٩هـ برفض البيعة؟ أو عندما عارض الثلاثة التوجه للحريق لمكافحة العصاة عام ١٣٢٨هـ، مما أدى الى ان يقوم البغاة باغتيال عدد من آل خثلان وهم يؤدون صلاة الفجر، فعرف الجميع بُعد نظر عبدالعزيز وحصافته. كما اعترضوا على ضم حائل لسلطته بعد جراب، وكذلك ارسال المجاهدين إلى تربة. كان الحديث يدور في مجلس والدي رحمه الله، عن تلك الدائرة الداخلية وقدرة الملك الفذة على التعامل معها، لكن حساسية الأمر لا تسمح بتفصيل ذلك هنا؟ ولا بيان المشقة في تسيير أمور دولة كبرى. في صلب السيرة الذي يقع في أكثر من 1000 صفحة، يجد الأحبة الكثير من "أحاديث المجلس" وكذلك "السيرة والعبرة" مما قد يفيد بعضهم، في معرفة كيف يقوم العمالقة بمجابهة العقبات، وعدم استخدامها لتبرير الفشل والعجز، بل تلافيها والوصول الى "الأمال العظيمة" وتحقيق النجاح فلهذا درك يا عبدالعزيز.

- تفاقمت أضرار الحرب على أعمال والدي، بعد ان توسعت المناوشات بين دول، لتصبح حرب عالمية شاركت فيها دول كثيرة، منها اليابان وروسيا ثم بعد سنتين القوة الأمريكية الكاسحة. لما وصلت الحرب قرب قناة السويس، اضطربت أحوال جدة، فهي الشريان الشمالي للميناء، ثم دخلت بوارج اليابان المحيط الهندي بعد احتلال سنغافورة، مما أثر على السفن التجارية المتجهة للمدخل الجنوبي (المنذب) لجدة. فزاد غلاء الأسعار وكان

ابن خثلان مع زمرة من التجار غير الاحتكاريين، وطالبي الثراء من الحروب، بل يفتشون عن شتى السبل لتزويد الأسواق بالسلع عبر مسالك بعيدة عن أماكن القتال.

● رغم ارسال الملك مندوب (قرقلني) لدول المحور، بأنه يقف على الحياد إلا أنهم لما سيطروا على الشام ثم العراق (الكيلاني) أرسلوا طائراتهم تدك مرافق البترول في شرق السعودية. مما أدى لصعوبة تصديره رغم ارتفاع سعره، فنقصت السيولة النقدية لدى عبدالعزيز، وزادت معاناة السوق المحلية من شح البضائع وغلاء الأثمان، وواجه أبو خالد مزيداً من الصعوبات.

● في عام ١٣٦٤هـ فوجئ والدي ليلاً بمندوب يستدعيه لمكتب الفيصل، وجد هناك لفيف من أعوان نائب الملك، واجتمع مع بعضهم حيث بين ان ملك مصر الجديد قرر زيارة الديار السعودية. كانت تلك مفاجئة حيث يلزم إعداد جيد وترتيب لمثل تلك التشريفات الملكية، وقد قام عبدالعزيز بإرسال ولده المحبوب منصور لاستقبال فاروق، ريثما يحضر هو من نجد. وخابر الفيصل مندوب المملكة في القاهرة (ف. السابق) فلم يعلم كنه أو أسباب الزيارة. لكن عبد العزيز كان يدرك جيداً مكانة مصر، فحاكمها قبل قرن ونصف أرسل جيوشه لإخراج السعوديين من الحجاز، ثم ساروا لتدمير الدرعية، وأخذ حاكمها الإمام عبدالله (ولد الإمام سعود أبو شوارب) للمشقة في إسطنبول. ثم جاء خورشيد باشا وهزم جد عبدالعزيز (فيصل بن تركي) في الدلم و أخذه سجيناً لعدة سنوات في القاهرة.

● وصلوا لإدارة قائم مقام جدة، ووجدوا اضطراب الترتيبات بينهم وبين الدفاع، وساهم والدي مع زملائه في تحضير مستلزمات الزيارة، لحين وصول الملكين لمقر الاحتفال شمالاً. وكانت تلك مناسبة فريدة، فقد كانت العلاقات بين الدولتين على غير ما يرام، في عهد الملك فؤاد الذي توفي وفاروق دون السن النظامية، لتولي الحكم حسب الدستور، وقام مجلس الوصاية بإزالة بعض أسباب الخلاف بين الدولتين.

● آنذاك كان فاروق شاب يافع متهور، يرافقه حشد من الوجهاء والمختصين، كما يحيط به ثلة من المعتوهين، وقبلها بسنتين رفض توصية معتمد بريطانيا في مصر، حول تشكيل حكومة ترضي رغبات الجماهير. فجاءت مصفحاتهم لتدك بوابة قصره، وألزموه بتعيين الوزارة التي يريدها الشعب، فرضخ على مضض. لكن من حوله أوصوه بإنشاء "حرس حديدي" سري مثل موسوليني، لاغتيال معارضيه مثل وزير المالية، فأدى ذلك الى تقييد ميزانية القصر. قال لوالدي أحد مرافقي الملك فاروق، والذي حج في العام السابق، أنه سيطلب قرض من ابن سعود بمليون جنيه إسترليني، لينفق على عمليات اغتيال مناوئيه، لكن الملك وافق على أقل من نصف ذلك هدية شخصية، مع عدم رغبته في إظهار الأمر أو تدخله في شؤون مصرية حساسة. وجرى التسليم بواسطة إحدى الأميرات، التي صعدت لليخت الملكي المصري، حيث أخت فاروق (طليقة شاه إيران) ترافق أخاها.

● كانت تلك الزيارة نقلة في الأحوال، فقبلها بأسابيع انتهت الحرب العظمى باستسلام اليابان، وبعدها بقليل دخل موسم الحج، واثناء لقاء الملك مع بعض رعاياه، كان على

يساره مقعدان شاغران ويليها مقاعد جلس عليها كبار قرابته، ثم الفيصل وبعدهم والدي.
قام أحد الجالسين يهنئ بالعيد بأبيات من قصيدة "لكل أمرئ من دهره ما تعودا" وبعدها
استأذن والدي للقيام، فحمد الله وأثنى عليه وبارك للعاهل ما وهبه الله من عزة وتمكين،
حتى لم يعد هناك أحد يدعي نفوذ أو قوة، بل وحتى البلاد الإسلامية في الجاوة والهند
والعجم والأفارقة يؤيدونه. بل ان مصر التي دكت العاصمة السعودية القديمة، وأخذت آل
سعود للشنق والسجن والتشريد، هاهو مليكها يأتي إليه مرتين في سنة واحدة. وما ذلك إلا
بالتزامه بشرع الله، حيث لم يعرف عنه أنه غدر بأحد معارضيه، بل ينصحهم ويتودد لهم
فإذا أبوا واعدتهم المنازلة الشريفة، ثم أنشد من القصيدة:
رأيتك محض حلم في محض قدرة

حتى كأن الحلم منك المهددا

وما قتل الأحرار كالعفو عنهم

ومن لك بالحر الذي يحفظ اليدا

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته

وإذا أنت أكرمت اللئيم تمردا

يدق على الأفكار ما أنت فاعل

فبترك ما يخفى ويؤخذ ما بدا

ثم لاحظ ان الملك يلتفت يساره بعيداً عن الشيخ عبدالله بن حسن، وقال "هاه هاه" مرتين
فتوقف عن الحديث وعاد لمقعده. فتحدث الفيصل وقال لوالده هذا ابن خثلان الذي سعد مع
فرقتة، نحو صنعاء قبل عشر سنوات، مما أجبر الإمام يحيى ان يبرق لكم بطلب الصلح،
لكن بدا أن الملك غير معجب بذلك الحديث، رحم الله الجميع وجمعنا بهم في الفردوس.

● بعد انتهاء الجلسة ومغادرة الوالد، لحقه ابن زعير وتحدثا عن أحواله مع سبعان
الأفلاج قليلا، حيث قال له ان الملك له اشكال مع الحريق والحسا. فرغم أنه أصيب
عدة مرات بجراح من الطلقات النارية، بل وانكسرت عظامه في بعض المعارك، إلا
أن الرصاص لم يستقر داخل جسده إلا مرتان. أولاهما عندكم في الحريق عندما كمن
البغاة، وأطلقوا علينا وابل كثيف من الرصاص، والثانية في كنزان حيث هجموا ليلاً،
وقتلوا شقيقه الوحيد (سعد) وأصابوا الملك بالرصاص. لذا فجلالته لا يحب الحسا

والحريق فتبسم والدي، وقال ربما لا يحب البلدات التي تبدأ بالحاء، مثل حایل والحوطة وحریملا؟

• قال البعض بعد الولیمة أنهم مستغربون من المودة بينهما، فرد عليهم والدي ان في حياة الزعیر عدة مواعظ وعبر، أهمها دوره في إنقاذ حياة الملك لما كمن له بعض القرابة ونفر من البغاة، وأطلقوا وابل كثیف من الرصاص على ركابه في مدخل الحریق الشرقي. وكان الزعیر ممسك بعنان فرس الملك، فتصرف بسرعة بعد ان اصابته طلقات فقتلت الفرس، فدفع سيده على الأرض وتمترس وراء جثتها، وبذلك قدر الله ان يجعله سبب نجاة عبدالعزیز من القتل في الحریق عام ١٣٢٨هـ. ثم تعرف على الزعیر مع والده اثناء حصار قصر الوسيطاء، حيث تحصن المناؤون لابن سعود. والمرة الثانية عام ١٣٥٠هـ بعد أن جاء الزعیر من القنفذة كمندوب سامي لدى الإدريسي، لكنه سجنه فيما بعد لما نقض الاتفاق مع الملك عبدالعزیز. وكان والدي قد نصح الزعیر بالحدز من الإدريسي، لكنهما للأسف كانا يختلفان في كل شيء ويتفقان في "الطبع الحار والمزاج الحاد" فثار القتال بينهما. حكى الوالد ان أحد كبار وجهاء صيبا (باصهي) توجه للإدريسي يرجوا إطلاق سراح الزعیر ورفاقه، لأن قوات ابن سعود اقبلت بسلاح ثقيل وتعهد بالوساطة مع نائب الملك (فيصل) لتسوية النزاع. وكان الإدريسي اقتنع وطلب من باصهي الحضور صباحاً لذلك، لكنه لما حضر لم يجد الإمام، فاجتهد نحو الإحسان وذهب وأطلق سراح الزعیر. خوفاً من بطش السعوديين وحرصاً على عدم تصعيد الأمور، فغضب الإدريسي بشدة، وقام رجاله بقتل باصهي وهو قائم يصلي! واعتبر والدي ذلك من وفاء باصهي وخدمة لصديقه الزعیر، كما فعل السموأل مع امرئ القيس لكنه لقي اسوء جزاء. ولما فوض الفيصل والدي لتسلم الإدريسي سجيناً من جنود إمام اليمن، كان معه الزعیر الذي وجه له كلام شديد. وأنه لولا ان باصهي أطلق سراحهم، لما بقي رأس الإدريسي على كتفيه، فنصحه أبي بعدم إهانة الأسرى. وهذا مما فصله في صلب السيرة بعون الله، لكي يستخلص منها الأحبة الموعظة والعبرة. وأنوه لكم إياها الأحبة أنني شاهدت الزعیر وهو شيخ كبير، في مجلس والدي في السبعينات (قرن ١٣هـ) لكني لم أتعرف عليه قط، وقد تعرفت على أحد أبنائه (صالح) الذي تولى إمارة الحریق لسنوات، ثم عمل عند الملك عبدالله. أما قلعة الدواسر (اللاسلكي) في جيزان، التي تحصن فيها الزعیر حتى دكها الإدريسي بالمدافع، ثم استسلموا بعد برقية الملك عبدالعزیز، فقد زرتها لكني لم أدخلها حيث كانت تحت الترميم. وقد سكنها والدي لما كان مندوب سامي في جيزان قبل الزعیر، وقد سميت كذلك لأن معظم رفاقه كانوا ينتسبون لتلك القبيلة.

• تعرف الخثلان في تلك الفترة على ولي العهد سعود، الذي كان يحضر للحجاز اماماً رقيقة والده ومستقر في نجد، وعرض عليه العمل معه هناك، لكن شغف السنين مازال مستمر مع الأرض المكرمة فاعتذر عن ذلك. وتعرف على ثالث وزراء الملك بعد ابن سليمان والفيصل وهو الأمير منصور (الدفاع) الذي كانت والدته تعهد للخثلان تدبير بعض شؤونها اثناء زيارتها لمكة، وذلك عن طريق مدرس الأمراء (أسد الكاظمي)

الذي يستعينون به لكتابة عناوين الرسائل باللغة الأجنبية. حيث البريد يخرج من الرياض إلى العراق، ثم يدخل في الشبكة العالمية، ويصل للقرابة خارج المملكة. وكانت ترافقها أحياناً بعض "أمهات أولاد" الملك الأخريات، مثل والدة الأمير طلال، أما زوجات الملك فهن يستعن بأقاربهن السعوديين، لتدبير شؤون الإقامة جوار الحرم. وقد صار اسم "وارد الخثلان" مهم وعلامة على الجودة، وبخاصة في الأثاث المنزلي الذي أخذ يتاجر فيه مؤخراً.

● في الفترة اللاحقة لاحظ طفرة كبيرة في إيرادات الدولة النقدية، وبعد ان كانت الرواتب والمخصصات تدفع بشكل متقطع، حيث قد لا يصرف في بعض الأشهر سوى الربع أو الثلث، وتتوقف في بعض الأحيان. وسمع من صيارفة المدعى والجودرية، ان إيرادات البلاد من تصدير البترول قاربت ٢٠٠ مليون ريال سنوياً، بعد ان كانت في حدوده ١٥ مليون فقط معظمها من الجمارك والرسوم، وتوفرت نقود جملة لدى المملكة، وانتظم سداد الرواتب وتحسن سعر صرف العملة. لقد كان الريال السعودي (زنة ١٢ غرام فضة) يقل عن ريال الفرانسة (٢٧ غرام) ولم تكن هناك بنوك سعودية ولا تحويلات مصرفية، وشركة البترول تسدد القيمة في أكياس قماشية متينة، كل منها يحوي ألف ريال. وقد سمعت أحد مجالسيه يقول ان خزائن ابن سليمان في جباد وجرول ضاقت عن استيعاب تلك النقود، فأصبح يحيلها إلى منازل بعض الأمراء والوجهاء لحفظها. كما ذكر أحدهم أن بعض سيارات الجيش، أحضرت مئات من تلك الأكياس إلى منزل سعيدان الحريقي في الجميزة، الذي كان من الثقة المقربين لوزير الدفاع.

● أدى توفر النقود إلى انتعاش الأسواق، دخل ابن خثلان في تجارة مواد بناء المنازل على الطراز الحديث، حيث توقف الناس عن البناء بالحجارة والنورة والخشب، كما قام بفتح مكاتب له مع شركاء في مصر والأحساء (البحرين) لتسهيل جلب السلع للسوق المحلية. كما أخذ يشتري أراضي في الطائف وجدة، حيث يتحسس منها في المكربة، لحديث عن الخليفة الفاروق عنها، فهو اعتبرها وقف لعامة المسلمين. وتخوف من تجارة المحروقات ذات الأرباح العالية والمخاطر المماثلة، فقد احترقت بعض مخازنها، وبخاصة لما علم ان الشركة في الظهران (راس تنورة) تبني مصفاة لتكرير النفط، تنتج وقود السيارات (بنزين أو بلزيم) ووقود الشاحنات (ديزل - مازوت - سولار) وكذلك زيوت التشحيم. ثم سافر إلى مصر مع شقيقه العم رشيد رحمهما الله، كما زار بيروت وإيطاليا لإجراء صفقات تجارية في الأدوات المنزلية.

● في عام ١٣٧٠هـ عاد الانتعاش لأسواق مكة، بعد أن تخوف السكان من آثار نكبة فلسطين، التي اغتصب الصهاينة اجزاء منها، وكانت أرامكو قد بنت خط لنقل النفط للبحر المتوسط، في ميناء حيفا لكنه وقع في يد العدو، فسارعت الشركة بتغيير المسار نحو لبنان. كان والدي قد طلب الإذن من وزير الدفاع للانخراط في جيش التحرير، لكنه أفاد أن الشرط ألا يزيد العمر عن ٥٠ سنة وهو أكبر من ذلك. والأمير منصور رحمه الله يحمل مودة خاصة لأهل الحريق، الذين يصفهم بالإخلاص والمصادقية،

وشكره والدي على ذلك مبينا "أن من أهل الكتاب من أن تأمنه بقنطار يؤده إليك" وفي كل قوم صالح وطالح.

● في تلك الفترة اغتم والدي لفقده ثاني أكبر أبنائه في فاجعة أليمة، تأثر منها هو وأكبر إخوتي (خالد) رحمهم الله جميعاً، وأدت الى انفصاله عن زوجته ومغادرة مكة للعمل في مطار جدة، مع أحد المقربين للأمير منصور (الطاسان) رغم تمعض الوالد من ذلك، إلا أنه لاحقاً أصبح معيناً له في متابعة أعماله التجارية.

● تعاقبت الأحداث بعد نكبة فلسطين، مما أدى الى تدفق حشود هائلة نحو الديار السعودية، التي من الله عليها بالرخاء والأمن. فقد هاجت بعض عشائر اليمن الطامعة، وأثارت الغوغاء فقتلوا إمامهم (يحيى) وهم يصيحون برفض "الهاشمي والنصراني" بعد اتفاقية عدن بينه والإنجليز. وهو المنتسب للسلالة الشريفة (الحسن سبط الرسول) من ذرية إبراهيم الغمر (الشبيبه) وما زال القتل مستفحل بين تلك العشائر حتى يومنا. وفي صلب السيرة المفصلة سأسرد للأحبة، بعض ما سمعه والدي من الإمام أحمد في الحج، لكي يستخلصوا منها العبر. ومن مهاجري اليمن استعان والدي بمن يظنهم من الصالحين، حيث أهل عدن (الحضارم) ذوي علم وخبرة، وبني قعيط يحسنون السيطرة على المصاريف، أما بني كثير فهم أهل الأمانة والشيمة، واللحوج يتحملون العمل الشاق في حرارة الشمس بمكة.

● أما الشام فجاءت نكبتها على يد أحد قادة الجيش (حسني) الذي قرر الانقلاب على قادة البلاد (القتولي والعظمة) وسجنهم، وجعل نفسه الرئيس وبعد شهر انقلاب عليه أعوانه وقتلوه، فدخلت البلاد أزمات مستمرة حتى يومنا هذا. واندفعت أفواج من المهاجرين نحو بلاد "الرخاء والأمن" السعودية، واستعان والدي ببعض ذوي الخبرة منهم في الأمور الهندسية والمحاسبية.

● في عام 1370هـ اهتزت أحوال الأردن، لما أطلق فلسطيني النار على الملك عبدالله بن الحسين، وهو متوجه للصلاة في المسجد الأقصى، واعتبر والدي ذلك عمل دنيء كريه. فقد كانت له علاقة بالرجل اثناء عمله مع والده في مكة. ورغم اختلافه مع بعض أفكار الشباب آنذاك، إلا أن تلك الجريمة أجزنته. وجاء دور مصر بعد شهر حيث تأمرت زمرة من الضباط (سموا أنفسهم الأحرار) وجرى نفي الملك وتحويل البلاد إلى جمهورية، سيطر عليها العسكر مع نزاع دائم مع الإخوان المماتلين لهم في السوء. انهارت منظومة التعليم والصحة والصناعة، في أكبر دولة عربية ومقر الجامعة العربية، وانتشرت المخدرات والفسوق والجرائم. أدى ذلك لنزوح بعض خيرة الناس نحو البلاد السعودية، واستفاد والدي من خدماتهم في أعمال الإصلاح والترميم، بخاصة للخيام والأرائك المكتبية (كنب) التي كان يتاجر فيها. كما أدى ذلك لتحسن ملموس في الخدمات الطبية والتعليمية بالحجاز، وتنمية منشآت صناعية جديدة، ترفع مستوى الرفاهية في مكة وجدة والطائف، حيث أصبحت البلاد السعودية موطن "الأمن والرخاء" الأول في المنطقة العربية.

- جاء رئيس مصر الجديد للحج عام ١٣٧٢هـ، ورغم توعدك الملك وإنابته لولي عهده سعود، لقيادة الحج إلا أنه أبى إلا أن يخص اللواء نجيب بلقاء مميز حضره والدي. وقص في مجلسه أن عاهل البلاد كان في حالة صحية متردية، وكانت العافية قد بدأت تغادره لما تجاوز الثمانين، وزاد الأمر لما فقد "قرة عينه" ابنه الشاب الأمير منصور وهو في ريعان عمره كما قال لهم. واستقراره الدائم على (هدية روزفلت) الكرسي المتحرك، وقلّة النشاط البدني تسببت في ترهل الشرايين والأعصاب، وأثرت على وظائف البدن الحيوية.
- بعد ذلك بشهرين كنا ما نزال في الطائف لشدة الحر في مكة، وقد اعددنا للنزول إليها عند بدء الدراسة، لكن مناسبة زواج أجلت ذلك، حيث كان والد العروس من عائلة أم والدي، ووالدتها من عائلة أبي رحم الله الجميع. قبل الظهر لم أجد والدي وشاعت همهمات خفية، وعلمت أنه هرول مسرعاً إلى جدة مع فواز البرازي، في ملاحظته الجديدة (حمالي) عن طريق السيل. محلنا في الشرقية غير بعيد عن قصر شبرا، وعند المغرب أشعلت إضاءة "الأتاريك والكلوبات" وبدأ الدق على الدفوف، ثم حضر جماعة من الأخوياء وأمروا بوقف ذلك فوراً، وسارع الحضور بإدخال العريس عند النساء، فساد الصمت والظلام، وكنت مع الأطفال من القرابة لا نبالي سوى بسماع الأصوات وتناول المأكولات.
- لما بلغ الحضور نباء وفاة الملك، تعالى الصراخ وبخاصة من الخدم، وسارعت أم أمان (أمي أيضاً من الرضاع) رحمهما الله لاستدعاء بناتها وولدها الوحيد، وخرجت للبحث عن كروة (سيارة أجرة) لتقلها إلى بيثشة حيث بعض أقاربها. وشاعت بين الحضور أقاويل عن عودة الغطغط لنشر الرعب والخراب في الطائف، وقال آخرون أن نزاع قد يشب بين الأخوة يؤدي إلى فتن، وصار كل شخص يبحث عن ملاذ آمن، حيث سيجري النهب والقتل، بعد وفاة أسد البلاد وصقرها الجبار.
- في الأسابيع التالية ثبت زيف تلك الظنون المتشائمة، فبعد العزيز قد بنى دولة كبرى على قواعد متينة، وسارت الأمور على ما يرام بفضل الله ثم تعاقد سعود وفيصل، وتحديد صلاحيات أعضاء مجلس الوزراء، وتوجهت البلاد نحو المزيد من الرقي والتنمية.
- بعد شهور زار الملك سعود المدينة المنورة، وأعجب بتوسعة الحرم النبوي الشريف، وتساءل عن سبب تأخر انجازه، فأجابه المقاول (بن لادن) إنه الأهالي والبلدية. لذا فقد قرر توسعة الحرم المكي، وعمد ولي العهد بترتيب مدير نشيط للبلدية، لضمان إنهاء التوسعة في خمس سنوات. تداول الفيصل رحمه الله حول ذلك مع رجاله، وقال أحدهم إذا كان من ناصرنا رسول الله عليه الصلاة والسلام، شاكسوا المقاول والبلدية وأخروا توسعة المسجد النبوي ثلاث سنوات، فإن من أخرجوه من قريته أكثر مشاكسة، وسيعطلون توسعة الحرم المكي لأكثر من ثلاثين سنة. لاحظ أيضاً أن آخر اثنين من رؤساء البلدية في مكة لم يبقوا في مناصبهم سوى شهور، لذا فقد تداول مع بعض

فقهاء الحرم والتجار وعمد حارات مكة، انتهى به الأمران ابدى رغبته لابن خثلان لتولي ذلك.

● اعتذر منه الوالد لأن لديه أعمال تجارية في مناطق الحجاز تستلزم تفرغه، كما أن أهل مكة يعدونه غريب عن بلدتهم، وليس مثل القادم من جاوة قبل سنتين لا يحسن العربية ولا يعرف الدروب. وقص عليه طرفة قدوم سيارة للشرائع ولما سألوهم عن هوياتهم قالوا نحن خمسة من أهل البلد واثنان شروق! لكن الأمير أدخل بعض الكبراء لإقناعه، بخاصة أنه شارف على السبعين، وستكون خدمة بيت الله الحرام تاج أعماله في سبيله تعالى، رغم ما سيصيبه من نقص في المال لتوقف تجارته.

● في منتصف السنة التالية لوفاة الملك عبدالعزيز، صدر تكليفه بمهام أمانة العاصمة، وتسهيل توسعة الحرم في اللجنة المركزية. كان يعلم بصفته مكي منذ عشرات السنين، أن البداية صعبة وترتكز على ثلاث قواعد، أولها تطهير البلدية من الفساد المستشري، وثانيها تحسين أداء مهامها، وثالثها وأهمها هو تحسين أوضاع البيت الحرام، لرواده من حجاج ومعتمرين وطائفين ومصلين ومعتكفين.

● عمل على الأمور الثلاثة في آن واحد، وهذه النبذة مثل ما أوضحت في صلب السيرة المفصلة، ليست سجل شرف وإطراء إنجازات موظف أجير، عليه أن يقوم بمهام عمله، وليس بحاجة للصقل والمديح مثل "الكتابات الصفراء" الممقوتة. إنما هي إيضاح للذرية وللأحبة عن منهجه في العمل، تحت ظروف صعبة لا تؤدي في العادة إلا للفشل. ومن يرغب المزيد عن تلك السنوات، ففي نص السيرة وفي مطبوعات تلك الحقبة، ما سيرشده لمعرفة الوقائع.

● تطهير الجهاز الإداري تركز على ثلاثة أمور "جوهريّة ومظهرية" ووسطى بينهما، أما الأولى فلم تحتل التساهل والتأجيل، وكان يعرف الكثير عن فساد بعض الموظفين، من تعامله مع البلدية خلال خمس وثلاثين سنة ماضية. كانت الأعمال الخبيثة تنطوي على استيلاء لبعض العقارات، والحصول على رشاي لإصدار فسح (كوشان) بناء، أو إعطاء أولوية للتروية من السقّاءين، حيث لا شبكة مياه بل دحول لرفع الماء من جدول العين. أو السماح بأحواش للبهائم داخل الأحياء، للتغطية على عملية صنع المشروبات الممنوعة. ولما استوفى مسوغات فصل نفر قليل من تلك العصابة، شاور الفيصل الذي أوصى بأن يكون القرار من وزير الداخلية، حيث أن لهم علاقة مع بعض ذوي النفوذ. جاء دور الوزارة بتخفيف العقوبة، لكنه رد بعدم جدوى ذلك لردع البقية واستئصال الفساد، فجاء استفسار عن وجود بديل لهم، فقال إن لا حاجة لبديل للمعتدين. وبعد إتمام الأمر شعر بقية المفسدين بالجديّة في محاربة أعمالهم فارتدعوا، ولم يوافق على العفو عنهم رغم توسط بعض الكبراء في ذلك، مما دفعهم لتخويله بالتعلق في أستار الكعبة للدعاء عليه، فرد عليهم أن الله لا يهدي كيد الخائنين. وأدى ذلك لردع بقية المفسدين وتناقص التلف.

● الأمر الثاني هو الممارسات الوسطى الفاسدة، والمتمثلة في أعمال دنيئة مثل طلب اكراميات من المقاولين والمتعهدين، سواء في أعمال إضاءة الطرق بالكلوبات حيث

الكهرباء قليلة. او تقاضي عطايا لقاء التجاوز عن مخالقات، مثل وضع أعمدة خشبية لإسناد الرواشين في السكك الضيقة. كما كان بعضهم يقبل الهدايا مقابل التغاضي عن تقصير في أعمال نظافة الطرق، أو رش الماء في السكك الترابية، وآخرون يفرضون اتاوة على أهالي الموتى، كي يوفروا لهم "خدمات الشرشورة" أي القبورجية لذا كانت أمانة العاصمة تكثر من الإعلان للجميع أن كافة تلك الخدمات من غسل وتكفين ودفن تتحملها البلدية، مع عقوبات الخصم من المرتب لمن يقبل أو يطلب ذلك.

● الأمر الثالث وإن لم يكن من الخيانة والفساد، إلا أنه من المظاهر الرديئة، حيث يتضمن ممارسات بذيئة، وسيئة وإسفاف وقلّة أدب ولياقة. من بينها تعاطي دخان الجراك من الشيشة داخل المكتب الحكومي، وتكليف صغار الموظفين للرفق التبغ للمدراء أو حتى زوجاتهم. لقد جرى منع الشيشة في مكاتب الأمانة فوراً، وذلك قبل منع الدخان في مكاتب الدولة بأكثر من خمسين سنة، وإن كانت الشيشة قد عادت بعد أيام من مغادرته العمل بعد سنوات من الانقطاع، بل وجلب لها أخصائي ذواق من جدة لتجهيزها لأمين العاصمة الجديد وكبار الموظفين. أما ملابس البعض فقد كانت غير لائقة، وتم ترتيب زي خاص للعمالة البسيطة، بخاصة في أشغال النظافة التي يتخصص فيها اللحوج. وتوفرت لهم قمصان وسراويل بسيطة، وطواقم بديلة عن طربوش القش على رؤوسهم. أما الطامة الكبرى فهي الألفاظ القبيحة، التي يتداولها بعض منسوبي البلدية، وتؤدي السامعين لاحتوائها كلمات فاحشة، لا يقبل سماعها ذوو الشيمة والمروءة، ناهيك بخروجها من أفواههم. في وليمة عشاء لتكريم بعض العاملين المتفوقين الأداء، شرح لهم الخثلان ان ذلك التخاطب منبوذ، ولن يقبل سماعه في المرافق التابعة لأي شخص قطعياً. حثه أحد الأشراف لتجنب التزمت، حيث تلك الكلمات ماهي إلا تعبير عن مشاعر المودة الإخوانية، وتؤدي لزيادة الألفة بين زملاء العمل وترفع الكلفة، كما يعتبرها المكاوية من قبيل المزاح والدعابة.

● شعر الوالد بحساسية الحال، وعدم الرغبة لدى الكثير للتدخل في خصوصيات العامة، أو جعل بعضهم يتجسس على بعض. لذا حثهم على تجنب البذاءة مستشهداً بقوله تعالى: (عن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة) وعن بغضه تعالى للجهر بالسوء من القول، ثم سألهم عما إذا كان أحدهم يحب أن تسمع أمه أو أخته أو ابنته ذلك؟ بل كيف يجرؤ البعض على تلفظ بذيء القول في المطاف عند الحطيم، حيث سمع أحدهم يقول لمن صادفه، وحشتنا ياهوه فينك يام--- وأوضح أن الحرف الأخير س أو ص ولم ينطق به. قام أحد بادية الطائف قائلاً إنهم لا يرجون الله أو الحرم وقاراً، ونسوتهم أكثر بجاحه منهم، وتسمع أقذع الألفاظ عند مخاطبتهم للباعة أو للخدم. لكن والدي قاطعه أنه يشهد أن غالبية أهل مكة من ذوي الشيمة والحشمة والأدب والعلم، وأن أهل السباب والسفاهة لا يتجاوزون ثلث العشر، لكنهم يسيئون للبقية.

● شعر والدي بالضيق من فكرة مراقبة أفواه فسقة الموظفين، وخرج من التغاضي عن بذاءة بعضهم، حتى جاءه الحل في الشهر التالي. فقد راجع شاب من بدو القرشية في معاملة له، فأمره الموظف بالصبر وناداه "يا؟؟؟؟ أختك" فسحبه من على مقعده، وألقاه

أرضاً وانهال عليه بالضرب، وهو يلغنه ومن أجلسه عليه. وتبين أن عليه سوابق التلطف البذيء على المواطنين، وأحيل الأمر للشرع الذي حكم بجلده وفصله من العمل الحكومي، وتأدب البقية عن تلك الأقوال الكريهة.

● أثناء ذلك كان يعمل جاهداً لتسهيل بدء المقاول في التوسعة، وكان الاقتراح أن تكون البداية من الجهة الغربية الشمالية (الداوودية والشبيكة والسوق الصغير) لكن الأمين رأى أن البدء يكون بالأهم وليس الأسهل، حيث الجهة الشرقية للحرم (القشاشية) فيها المسعى، والمدخل الرئيسي للقادمين من المدينة المنورة أو مطار جدة والطائف. وقد كان المسعى درب ضيق معوج، مرصوف بعضه بحجارة قديمة، متهاككة من سير المركبات عليها، وعلى جانبيه حوانيت لبيع الطعام والملابس. وبينما يهرول الساعون بين الصفا والمروة، تسير بجوارهم الدواب ويتعالى نداء الباعة، ولا يكاد رواد الحرم يكملوا مناسكهم إلا بشق الأنفس.

● كانت معدات ابن لادن مازال في المدينة، لكن العمل في الجهة الشرقية للحرم المكي، سار بهمة وجرى هدم كثير من منازل القشاشية، لتتمكن السيارات من الوصول إلى المسعى. كما أزيلت كثير من المنازل الواقعة بين المسعى والحرم، وبخاصة الجهة الشمالية (المروة والسلام) والتي كان فيها بعض البدع أو الفسوق. واعتمد المخطط لزيادة مساحة الحرم من نحو ٣٠ ألف متر مربع إلى ما يزيد عن ١٠٠ ألف متر، على طابقين وسطوح وأقبية. مع عمل ميادين فسيحة ومواقف سيارات، في الجهات الغربية والشرقية والجنوبية التي اعتمد فيها أيضاً حديقة.

● لا كمال التوسعة جرى تعويض ملاك العقارات المهدومة، ولتلافي التلاعب أو الفساد، قرر الختلان تشكيل ثلاث لجان مستقلة، تقوم كل منها بعمل التقدير العادل للقيمة. ويقدم للمالك السعر الأقل فإذا رضي به يدفع له فوراً بدون تدخل وسطاء (العاملين عليها!) وإذا رفض فهناك مجموعة من فضلاء موظفي الأمانة والمتعاونين معهم لإقناعهم، وافهامهم أن الختلان سيعطي الفسح لابن لادن للهدم فوراً، أسوة بالجيران فلم تحدث إشكالات. ويستثنى من ذلك الشكوى التي تقدم بها بعض نظار "أوقاف الأشراف" حيث منع تسليمهم مبالغ التعويض، بعد أن قام أحدهم باستخدامه لشراء عقار في لبنان، بدعوى أن العوائد هناك أعلى، وسينفق منها على القرابة. طلب الملك سعود وولي عهده فيصل لقاء بين الختلان وبعض النظار فحضر، ومعه بعض أعيان الأشراف ومنهم الأستاذ علي أبانمي، فشهدوا جميعاً بعدم جواز أخذ قيمة الأوقاف لمكان آخر سوى مكة المكرمة. لذا قرر أن تساهم أمانة العاصمة في توفير مواقع جيدة للأوقاف البديلة، بعضها قرب الحرم عند المروة (راقوبه+سوفتيل) وأخرى جوار فندق مصر (الكعكي) وأخرى في الغزة وغيرها بعيدة قليلاً عند الخريق، وذلك حسب الموقع الأصلي للوقف، ومعظمها أزيل بعد نصف قرن في توسعة الملك عبدالله. كما أشرف على تصاميم العمائر الجديدة وبنائها، حيث بعضها يزيد على عشرة طوابق وبها مصاعد متطورة، تسهم في خدمة زوار المسجد الحرام، وتحقق عوائد مجزية من الوقف. لقد بلغت التثمينات مئات الملايين من الريالات،

تعادل مليارات حالياً، راقب بدقة صرفها لمنع أي تعدي أو سطو أو إساءة، جعل الله ذلك في ميزان حسناته. وأما الذين باعوا عقاراتهم بجوار الحرم، واشتروا أراضي أو مباني في لبنان، فجاءتهم نكبة صفقات صوالحة، ثم الحرب الأولى (كميل شمعون) وتندموا على خسائرهم.

• أدى تسهيل الأعمال إلى تمكن مقال التوسعة من الإسراع في العمل، وخلال سنتين صارت المسعى ممشى من طابقين مبنية بالخرسانة المسلحة، وفي خط مستقيم وتشاهد الكعبة المشرفة على معظم امتداده. ولما حضر شاهنشاه إيران للعمرة (هـ ١٣٧٦)، سعى فيه وهو خالي من الدكاكين والدواب، إلا أن سقالات الصفا كانت تعرقل السير، وكنت قد حضرت ذلك (محرر السيرة) وأنا صغير في السن. حيث بداية المراسم من معلاة الحجون بعد نقلها من الشبيكة، ثم الطواف بالكعبة قبل توسعة المطاف ثم المسعى الجديد (هيكل خرساني) قبل إكمال تشطيباته.

• حرص الخثلان على تعزيز العلاقة مع المقاول (المعلم ابن لادن) لتفادي تأخر العمل، ورغم وجود قدر جم من الصعوبات، إلا أن الطرفين بذلا جهود لتلافي تفاقمها. ولما بوشر في إزالة المظلة المعدنية للمسعى القديم، اقترح عليهم عدم إلقائها في مكب البلدية، حيث أنها طويلة (نحو ٤٠٠ م) تقارب المسافة بين الجمرات في منى، حيث يعاني الحجاج من شدة حرارة الشمس (تموز) لكن المقاول رفض التركيب وليس في ميزانية البلدية ما يكفي. لذا قرر جمع تبرعات من أعيان مكة، لكن فرج الله جاء عبر مندوب إحدى الأميرات، التي ترغب في فعل الخير لحجاج بيت الله. ولا بد للأحبة أن يدركوا البون الشاسع بين مشعر منى في سبعينات القرن الرابع عشر هجري، والوضع الحالي، حيث كانت الجمرات (الوسطى خاصة) تقع بين المنازل، وفي شوارع ضيقة تحيط بها، وتعج بالدكاكين والباعة والمشاة.

• رغم مشاغله في اللجنة التنفيذية لتوسعة الحرم، ومع وزير الداخلية رئيس "هيئة الحج" (ليست مديرية الحج في وزارة المالية) إلا أن تلك القدسية، لم تشغله عن المهام التقليدية للبلدية. ورغم بلوغه السبعين إلا أنه كان يعمل ليل نهار، لضمان تحسين أحوال المعيشة في مكة المشرفة، سواء للمقيمين أو المعتمرين أو الحجاج، أو رواد الحرم للصلاة أو الطواف والاعتكاف. أكبر معضلة كانت شح المياه، فقد أسكن الخليل ذريته بواد غير ذي زرع ولا ماء، سوى زمزم المشرفة قليلة الوارد. كانت الأميرة العباسية ذات الفضل (زبيدة) قد مهدت الدرب من العراق للحجاز، ثم شاهدت الحجاج يموتون ظمأ في عرفات، فأمرت بسحب المياه من أسفل جبال الطائف لسقيا الحجاج. خلال أكثر من ألف سنة قام بعض حكام المماليك ثم العثمانية، بمد المياه إلى منى وشرق مكة. وكانت هناك مناهل يسحب منها السقاءون الماء، ويحملوها على أكتافهم (زفات) للمنازل المجاورة للحرم، لكن الماء قليل ولا يكفي لسد الحاجة. لذا عمل ابن خثلان مع إدارة عين زبيدة، لشراء آبار في نعمان وكبكب لزيادة وارد المياه، أما الأحياء الجديدة في الزاهر والنزهة والعزيرية، فقد مدت إليها شبكة أنابيب للمنازل، لكن آبار المياه وحتى في شمال غرب مكة كانت شحيحة.

● بقية مهام البلدية جرى تحسينها يومياً، سواء سفلتة ورصف الطرق وإنارتها بالكهرباء أو الكيوسين، ورش الطرق الترابية في الأزقة، وتشجير وتحسين مداخل العاصمة. أما الأسواق فجرى تشديد المراقبة عليها لضمان النظافة وتلافي التلاعب، وأقيم مسلخ حديث وتحسنت أعمال الشرشورة (غسل ودفن الموتى) التي كانت في حال مؤسف، حيث تدخل الضواري لسحب الجثث وإهانتها، وأعلن في الصحف عن منع تقديم نقود للعاملين فيها.

● من أكبر هموم ابن خثلان هو درء خطر السيول، وقد شاهد "فيضان الربوع" عام ١٣٦٠ هـ، حينما دخلت السيول الحرم وبلغت مستوى باب الكعبة، وطاف بعضهم سباحة ومات آخرون، لكن ابن لادن لم يرى ذلك ولم يتخيله. لذا رفض اقتراح كسر ٢٠ م من جبل شرق الصفا، لتتصرف السيول الكاسحة من الحجون والغزة، فبقي الطريق مرتفعاً في الوسط عن الجهة الشمالية. وفي عام ١٣٧٦ هـ هطلت أمطار غزيرة على مكة، لذا سارع نحو الحرم لتسهيل صرف السيول بعيداً عن الحرم، وفوجئ هناك ان النفق الذي صممه المقاول، لينقل السيول من القشاشية إلى المسفلة، ويبدأ من شمال الصفا نحو الرواق الجنوبي، قد انسد وطفحت منه المياه. ورغم ان الأمطار لم تكن بغزارة ما هطل قبل ١٥ سنة، إلا ان وجود بعض مواد البناء (اسمنت وخشب) مخزنة في داخل النفق، أدى لانسداد اجزاء منه، ودخل بعضه للرواق الشرقي ووصل المطاف. ولشدة الحماس وكثرة الركام الرطب، انزلق الخثلان وهو يوجه عمال البلدية والمقاول، لسرعة فتح النفق وتقليل تدفقها لداخل الحرم. سارع الكثير لانتشاله ورغم البلب في ثيابه والإنهاك، فقد استمر يحث المرافقين لتصريف السيول، وبعد قليل عجز عن الوقوف فنقلوه لتبديل ملابسه، وأخذ قسط من الراحة. لكن حرارته ارتفعت واصابته رعدة شديدة، وفي المستشفى تبين وجود التهاب رئوي حاد لديه، وكانت تعاوده نوبات من آلام الصدر، كما أصيب بالجنبه وهو فتي في الحريق، جراء مطالعة كثير من القراطيس في غرف طينية متهالكة، وهو الآن في السبعين. بفضل الله ثم بدواء حديث (آنذاك) ستربتوما يسين تعافى من النيمونيا خلال بضعة أيام وعاد لمباشرة عمله، حيث كان يتابع إزالة بقايا السيل حول الكعبة.

● رغم المهام الكثيرة في اللجنة التنفيذية لتوسعة الحرم وأعمال البلدية في مكة المكرمة، إلا ان ذلك لم يحجبه عن المشاركة في أعمال أخرى، تفيد رواد المسجد المكي رغم تداخل اختصاصها مع جهات أخرى، حيث كان يرجو من عمله رضوان ربه. ومن تلك الأمثلة خدمات الإسعاف، حيث اقترح الصبان طلب تبرعات لجمعية خيرية، فالمالية لا يمكنها تمويل ذلك ضمن الميزانية المتقشفة، ورتب الخثلان ثلاث سيارات (بوكس) تم تزويدها بتجهيزات خفيفة، لنقل المصابين في حوادث المرور والمنازل والعمل. وكلف طبيب بيطري لتدريب بعض منسوبي البلدية، على أساسيات التعامل مع المصابين بكسور العظام او النزيف، ويقدم للمتفوقين منهم مكافأة شهرية إضافة لراتبه. كما طلب من مديري مستشفى جياذ والزاهر، تدريب بعض المغسيلات على طرق نقل ورعاية النسوة المصابات، وكانوا قبل ذلك يبقون عرضة لتدهور حالهم. أما فرقة الإطفاء

الوحيدة في مكة (الشبيكة) فكانت ضمن مركز الشرطة هناك، وامكانياتها محدودة. لذا اشترى للبلدية شاحنات خفيفة (هاف لوري) زودتها الورشة بخزان فيه ٢طن ماء ومضخة، مع معاول وفؤوس وبخاخات، تساعد في اخماد بداية الحرائق، ريثما تصل الشرطة. العسة هم أيضا محل تداخل الصلاحيات، وهم يتبعون العمد الذين يختلفون من حارة إلى أخرى، المنتمون الى زعامة عشيرة (سليم، عتيبة، قریش) يرون مرجعهم أمير مكة، وغيرهم يكتفون بالتبعية لضابط شرطة الحي، وآخرون يستمدون النفوذ من أعيان السكان. كانت البلدية تعتمد عليهم في أمور عديدة، سواء من إزالة التعديات أو إصدار فسوح البناء، ويشكلون عنصر مساندة أو ازعاج لأمانة العاصمة حسب الأحوال.

• من أكثر أسباب الكدر هو منح الأراضي، حيث زادت طلبات الحصول عليها بعد ارتفاع الأسعار في شرق وغرب البلدة، حيث توجهت أموال التعويضات بجوار الحرم. وبعض الكبراء يرسلون "الأخوياء المسلحين" للمطالبة بتطبيق منحهم في مواقع أفضل. ورغم بيانه للجميع أنه قد حرم على نفسه وقرابته ونوي العلاقة، الحصول على منح في مكة إلا ان ذلك لم يزداهم إلا تعنتا، ولما اقترح تشكيل لجنة عليا لتخصيص المواقع لذوي المنح جوبه بالرفض. بل اتهموه أن أرض الحديقة جنوب الحرم، وأرض محطة القطار في جرول، قد احتجزها لنفسه وعياله ويريدونها لهم. وثبت كذب ذلك فالأولى التهمها أدهم، والثانية بقيت لأكثر من عشر سنين سوق خضار بعد مغادرته العمل.

• من المنغصات الأخرى تزايد الوفود الرسمية، لأغراض المناسك او لمشاهدة المسجد الحرام وقد تحول إلى أكبر ورشة بناء في البلاد. وقد جلب الملك مدير بروتكول من مصر، وضع لوائح معقدة وتستدعي مشاركة أمين العاصمة في استقبال كبار الزوار. كانت المراسم تقام في حارة الباب، وعزف السلام الوطني يصل للحرم، وكذلك رمي المدفعية يؤدي السكان، لذا قرر نقلها إلى طريق جدة، مما يجعله بعيداً عن مكتبه والحرم، أثناء تلك المراسم المرهقة.

• لما قامت حرب السويس (56م) احتل اليهود الضفة الشرقية للقناة، وتعطل مرور السفن القادمة من أوروبا والأمريكيتين، فنقصت المواد الغذائية والإنشائية في البلاد، حيث عمد بعض التجار لتخزين ما لديهم لحين تضاعف أسعاره. توقفت الأفران عن انتاج الخبز (العيش) في مكة مما يعني الهلع ثم المجاعة، فسارع مع شيخ الفرانة (الكعكي) لعمل طلبيات دقيق من آسيا وأفريقيا، لكنها بحاجة لأسبوعين او ثلاثة لتصل المملكة. ثم خابر رئيس بلدية جدة عن مخازن أكبر تجار المواد الغذائية (الشربتلي) لشراء الدقيق بسعر مجزي منه، وأفاده أن الرجل مستعد للبيع بما يقارب التكلفة، إذا حصل على تقدير معنوي، فخابر الطيبشي ليعرض على الملك ذلك، وصدر أمر منحه لقب "صاحب المعالي" لمدى الحياة وليس محدد، وتوفرت كميات كافية لتشغيل المخابز وتوزيع العيش بترشيد وعناية، لحين تجاوز الأزمة الغذائية. ثم فوجئ بابن لادن يطلب الإسمنت، حيث مئات من عمال بناء الحرم توقفوا عن العمل، ولا يمكن تحمل خسائر ذلك فسارع بالاتصال مع بالغنيم في الأحساء فتم تدبير سفن صغيرة محملة بالإسمنت من دول غرب آسيا، لتتلافى توقف العمل في توسعة الحرم.

● جاء الجد عبدالرحمن لعلاج عيونه في مستشفى جدة الحديث، وللأسف انبرى البعض بالشكوى له بأن ولده مثل "النخلة العوجاء" حيث يذهب حتاتها لغير أهلها (الجيران خلف الجدار) حيث كبار معاونيه من الحضارم والهنود والتوانسة، وليس بينهم أحد من أهل الحريق. فرد بأن "ظلم ذوي القربى أشد مضاضة على المرء..." لكن بعض الجماعة لا يفقهون، وأحدهم يشتكي أنه قريبه من الجد الرابع وجعل قريب آخر من الجد الخامس أكثر منه مرتب، فتوسط له لإدخال ولده الصغير مع المجاهدين بما يعوض والده عن أكثر من ضعف الفرق. ولما أصر الرجل على رأيه جابهه بصراحة، أنه لا يحسن القراءة والكتابة ولا قيادة مركبة البلدية، وهو لا يعين الموظفين مجاملة للقرابة بل تقدير الكفاءة، وكلهم في مناطق نائية عن العاصمة، لكن بعضهم لا يقدر ولا يوقر. أثناء تلك الرحلة أصر الأمير تركي بن عبدالله، أن يتوجهوا للطائف للسلام على الأمير سعود بن عبدالعزيز (الكبير) حيث لم يلتقيا منذ معركة الحريق قبل نصف قرن، ونفصل ما جرى آنذاك في صلب السيرة.

● لأمر ما تلقى دعوة للتوجه للرياض، ولم يتمكن من الاعتذار بإرسال أحد مساعديه، ولما وصل هناك استقبله بحفاوة بالغة الأمير فهد الفيصل (الفرحان) رئيس بلدية الرياض. عند البوابة حيث سيلتقي رؤساء بلديات مدن المملكة، لاحظ لوحة مكتوب عليها "أمانة العاصمة" فأمر السائق بعدم الدخول من تحتها. وتوجه للناصرية حيث قال الملك سعود، أن القوم ينتظرونه لأنهم قرروا أن يترأس اللقاء، فبين له أنه لم يستطيع الدخول لوجود تلك اللوحة المسمية للبلاد، فلا توجد عاصمتان لدولة، وهو لا يريد العمل "مدير بلدية مكة" بل يرغب العودة لأعماله التجارية، فأمره بالتوجه الى الاجتماع حيث أزيلت اللوحة. ثم بعدها توجه الى الأحساء والظهران للاطلاع على أرامكو والإنجازات الملكية هناك، كما زار والده المريض في الحريق. وعند عودته الى جدة وجد أحد معاوني ولي العهد يستدعيه، حيث أشاد الفيصل بموقفه، ونبهه أنه كوزير للخارجية رفض نقل السفارات للرياض، تداول حول تسمية منصبه "أمين المشاعر المقدسة" وتكون بلدية الرياض "أمانة العاصمة" لكن ذلك لم يحدث حتى اليوم!

● اثناء تأدية العمرة لاحظ في المطاف تصدع طفيف لبعض جدران الكعبة، وعلم من الشيباني ان ذلك من تأثير السيول على شذروان الحائط (الميدة المرتفعة بميل) لكن مهندسي البلدية قالوا ان هناك تشققات في السقف ايضاً، وأصر بن لادن ان ذلك خارج مهام التوسعة، وأنه يريد تعميم منفصل بأسلوب "عقد الأمانة" أي التكلفة+ المصاريف+الربح، وصدر ذلك مع برقية من الملك لإبلاغ أهل وسكان "المشاعر المقدسة" شكره على تحيتهم. أما ولي العهد فقد نزاع رداؤه وحمل معدات البناء وشارك في أعمال التصليح، لكنني لاحظت سرعة مغادرة والدي للكعبة، ثم جرت ملاسنة بداخلها بين بعض متدينة حضرموت وغيرهم حول أعمال بدعية، ثم خرج الفيصل غاضباً ومستاء من ابن لادن، رغم العلاقة الوطيدة السابقة بينهما، وفي السيرة سيجد الأحبة سرد لتفاصيل، لم تتحدث عنها وسائل الإعلام أو حتى كتب التاريخ. في مجلسه

سمعت مداولة عن ذلك الحدث، وما جرى من إعادة بناء الكعبة المشرفة قبل أكثر من ثلاثة قرون، حيث دخل سيل قوي من الجهة الشمالية، فتهدمت وتحولت إلى كومة من الأحجار والركام والتراب، ثم أرسل السلطان مراد من إسطنبول أموال ورجال ومعدات لإعادة بناءها، فأمر والدي بتسمية أحد أبواب الحرم "مراد" حيث رغم بقاءه في العهدة العثمانية مئات السنين، لم يقم سلطان منهم (خليفة) بالحج.

- أدت إزالة بعض المقامات والمباني في المطاف، واصلاحات حوائط وسقف الكعبة، إلى استنفار أبواق الحقد والعداء ضد الديار السعودية، وعلى رأسهم تركيا ومصر فقد ظن عبدالناصر أنه قد استنفذ اغراضه من الملك سعود، وقضى على خصومه ومهد له الوحدة مع قوتلي سوريا، وانزاح منافسيه على السلطة. لذا أخذ يتهم سعود أنه يعرقل الحجاج، ودفع مبالغ طائلة للسراج ليضع قنبلة في طائرته، وأنه عدو القومية العربية وتحرير فلسطين! أما تركيا فقرر رئيسها(مندريس) ان التوسعة تؤثر على التراث العثماني وتشووهه، واشتكى لأمریکا (ايزنهاور) لإيقاف تدمير الآثار المعمارية، مما جعل من الضروري تعديل تصاميم التوسعة.

- مقام إبراهيم كان معضلة أخرى، واقترح نقله قريبا من باب السلام، للتوسيع على الطائفين أسوة بما فعله الخليفة الثاني (عمر) من نقله شرقا بدلا من ملاصقة الكعبة، ورغم صدور فتوى تجيز ذلك وأمر ملكي، الا ان معارضة بعض السندوستان (الصادة) والبشناق الفسقة ومشائخ السجائر المصريين، قد أثارت مواقف البسطاء، وتعرض ابن خثلان لمحاولة اغتياله هو وآخرين في المشروع، لذا تقرر ابقائه في مكانه وسط زحام المطاف.

- عملت الأمانة على توفير مرافق جيدة للمشاريع الاستثمارية، سواء الفنادق والمشافي والأسواق، وأنجزت مخططات جنوب البلدة المقدسة (المسلفة) لإقامة منشآت صناعية، لا نتاج مواد البناء والأغذية، استفاد منها كبار المستثمرين مثل باحمدين والكعكي والجفالي وسجيني. كما ان التحسين لم يشمل فقط الطرق والأشجار والمباني، بل تعديل بعض الأسماء المستهجنة مثل أم الدود (أم الجود) أو حارة اللصوص وغيرها غدت أسمائها مقبولة.

- لاحظ ارتفاع بعض الأسعار، ووردته انباء من مراقبي البلدية، ان بعض صيارفة المُدعى والغزة يكتنزون الدولار والإسترليني والذهب، حيث تسربت معلومات من النافذين بالمالية، ان أرامكو رفضت دفع مقدم للبتروول، أو ضمان قروض حيث تراكمت المديونية، وزيادة الإنتاج أدت لخفض السعر. شهر رمضان له تعظيم خاص عند المكاوية، وبخاصة التوسيع على عيالهم في الطعام والشرب واللباس، ولما تأخر صرف الرواتب ثم دفع جزء منها، اضطربت الأسواق وزاد الغلاء ونقصت السلع. وحاولت البلدية مقاربة الأمور حتى موسم الحج.

- بعد المناسك كان الخثلان في قصر منى، وتحدث معه بعض كبار أبناء الملك عن الطريق الجديد الذي سيفتح شرق القشاشية (شعب عامر) واقترحوا على الملك ان يسمى باسمه (سعود الأول) وأجابهم أنه طريق صغير لا يليق بمقام جلالته، وسيكون

مدخل القادمين من الطائف وعرفات فقط، وأنه خطط لطريق أوسع للقادمين من جدة، يأتي من غرب الحرم (السوق الصغير وجبل عمر) وسيسلكه كبار الضيوف، لكنهم أصروا على رأيهم، وسيعمد بن لادن بتكسير الصخور لتوسعته. كان يعرف حساسية الأمر وتحدث مع وزير الداخلية ووالده (ولي العهد) لكنهما حملوه عبء ذلك!

● استهل العام التالي (١٣٧٨هـ) بفاجعة أليمة، حيث أثناء صلاة العشاء (ربع ساعة قبل ٩ زوالي) اشتعل مصباح كيروسين من دكان ملابس بزقاق البخارية (الشامية جوار الباسطية) وسرعان ما انتقل اللهب للمجاورين، والحمام طار ونقل الحريق للمنازل القريبة، وتوفي البعض وحدثت خسائر مادية جسيمة. مركز شرطة الشامية ليس لديه فرقة إطفاء، وسارع أمين العاصمة بتدبير الإمكانيات المحدودة لديه للحد من توسع الحريق شرقاً نحو الحرم. كما نادى فرقة من القصور الملكية، وقام مقاول الحرم بتقديم صهاريج الماء والمضخات لإطفاء اللهب، وحفارات لإزالة الرماد المتقد بداخله جمر من أخشاب الرواشين. وكلما أطفأت منطقة عاودت النيران تمد أسنتها في مكان آخر، نتيجة الركام الخشبي والطيني للمنازل والمتاجر المتهدمة. في اليوم التالي وصل من جدة وزير الداخلية، المشرف على مراكز الشرطة والبلديات في المملكة، واقتربت النيران من الحرم، فاضطرت سيارات مكافحة للدخول جوار الكعبة، وفي اليوم الخامس تمت السيطرة كلياً على الحريق.

● رغم الضائقة المالية في البلاد، فقد سارع الجميع للتبرع لتعويض الضحايا، وعلى رأسهم الملك وأبنائه بمبلغ يزيد عن نصف مليون ريال، وتبرع كبار التجار بمبالغ أخرى، وبعض الأهالي بمبالغ على قدر المتيسر من عشرة ريالات حتى ألف ريال. أما رئيس بلدية الرياض (الفرحان) فقد كان سخي النفس، فأرسل لأمين العاصمة برقية فيها تبرع بسيارة اطفاء، ووقعها على أنه مدير البلدية وليس أمين العاصمة، وذلك بعد الخلاف مع الوالد في العام السابق حول تسمية الرياض أمانة العاصمة، ورد عليه شاكراً ومقدراً أريحيته. كما أرسل للملك يطلب تزويدهم بسيارتي إطفاء حديثة تصل إلى الأدوار العليا، ووافق الملك فوراً رغم الضائقة، وتعهد الجفالي بتوريدها بسعر التكلفة، وتحمل مصاريف جلب معدات وملابس فرقة الاطفاء، وتدريبهم على حسابه في جدة بواسطة خبير ألماني.

● تفاقمت الأزمة المالية وكلف الملك ولي عهده بإيجاد الحلول، حيث عجز الصبان عن السيطرة على الموقف وأعفي بعد 4 سنوات من توليه الوزارة، رغم خبرته الطويلة كوكيل مع وزيرها المخضرم لعشرات السنين (السليمان). وكان الفيصل كفاء لتلك المهمة الشاقة، فبدأ برنامج جاد للتقشف، حيث إنهار سعر صرف الريال، وغدا الدولار بنحو عشرة ريالات بدل أربعة ونصف وأختفي الاسترليني، والجنيه السعودي (ذهب 8 غرام) زاد من 40 ريال إلى ما ينوف على المائة. وتحولت ميزانية الدولة من سنوية إلى كل 3 شهور، وصار الريال 20 قرش بدل 22، وأوقفت المخصصات الاضافية، وجرى خصم ثلث الخزينة الخاصة للملك، وتأجيل مشاريع التوسعة للحرم، وبناء الطرق والمدارس والمستشفيات. وعانى المواطنون من غلاء الاسعار وتدني

الرواتب، وتناقصت فرص العمل وزادت معدلات البطالة، ولم تعد هناك أموال لدى البلدية تكفي لتكملة المشاريع، أو حتى دفع كامل الرواتب للموظفين.

● عندما وصلت أولى مركبات الإطفاء الضخمة المطورة إلى مكة المكرمة، أوحى إلى أمين العاصمة بإقامة حفل لذلك تطوف فيه شوارع البلدة، وتعرض قدراتها عند بيوت الكبراء، وكان ذلك وبال على والدي. فقد طفحت على السطح المشاعر القذرة، وبدأ بعض الاتباع يكتبون على الحوائط عبارات بذيئة، مثل يسقط..... ويعيش.....، مما زاد في احتقان الناس، في ظل غلاء الأسعار ونقص الدخل.

● لما ذهب الخثلان لخزام، وجد في الديوان وجوه جديدة، تبادلوا معه الحديث حول بعض الأمور المحلية. ثم قال له أحد المرافقين إن أولئك ليسوا من الصالحين، فرد عليه أنه لا يعرفهم ولم يلاحظ إلا أنهم ليسوا ملتحين، رغم أنهم من أسر عريقة من وسط الديار السعودية. فتبسم الرجل وسأل الله أن يسامح أبو خالد، لأنه لم يلاحظ أن بعضهم مرده لا شارب ولا لحية، ولا يؤدون الصلاة مع الجماعة، وحديثهم فيه عبارات الرطانة؟ وكل ينتمي لفرقة ما فأحدهم لبيبرالي وآخر علماني وغيره قومي ورابع ناصري، وشكلوا تجمع سموه "نجد الفتية" فتساءل والدي عن بقية الديار السعودية؟

● كان الملك سعود في وجل واضطراب، فقد كان يهوى العطاء الجزيل (أبوخيرين) كما كان يفكر في النظام الدستوري، الذي يجعل ولاية العهد (مثل بريطانيا) في أبنائه وليس إخوته. لكن الأزمة المالية حدت من رغبته في السخاء والندى، وفي العام السابق وقع مرسوم نظام مجلس الوزراء، الذي لا يتحدث عن ولاية العهد، بل يجعل صلاحية الحكومة كلها في يد رئيس المجلس، والملك دوره محدود. لكن تلك الفرقة المتناقضة الأهداف كانت تسمعه معسول الكلام عن النهضة والتقدم، خاصة أن أبواق عبدالناصر كانت تثرثر عن مساوئ ملوك العرب "الرجعيون" الذين يجب ازالتهم حتى يتسنى النصر على العدو واستعادة فلسطين. وقد دخل الذعر في خاطره بعد مشاهدة الغوغاء في بغداد يسحلون رئيس وزراء العراق وملكه (الشريف فيصل بن غازي) ويقتلون أيضاً جدته وخالته وخاله الوصي عبدالإله.

● تأثرت مهام الخثلان في توسعة الحرم المكي وخدمة المشاعر والأعمال البلدية في مكة، وأشدها هو حرمة المقابر وتوفير الثلج لمغاطس ضربة الشمس، خاصة أن موسم الحج القادم في شدة الحر. وقد عمد مالية الأمانة لخصم ثلث راتب أمين العاصمة لتلك الأغراض، كما خابر عدد من كبار تجار مكة الصيد النبلاء، الذين سارعوا للمساهمة في ذلك، وسد نقص التمويل جراء سياسة التقشف. التي جاءت بنتائج ملموسة خلال شهور، ولكن على حساب فكر وجهد ووقت وصحة ولي العهد، الذي استعان بخبراء دوليين نصحوه ببيدهيات يصعب تنفيذها، مثل أنفق مما في الجيب ودع ما في الغيب، والحرص على غذاء وكساء ودواء المواطن العادي، والاهتمام بصيانة ورعاية المرافق القائمة، والغاء أي مشاريع جديدة.

● بعد منتصف السنة شعر الناس أن رمضان المبارك في مكة، سيكون في طقس بديع (حوت) فجاءت نحوها أعداد غفيرة، من بينهم بعض نسوة الملك وأمهات أولاده، وحضر للبلدية عدد من خدمهم ومرافقيهم، للاطلاع على أحدث المخططات للأراضي والطرق، بخاصة ما يقع شرق المسجد الحرام. أما ذرية ولي العهد فقد كان وزير الداخلية مطلع على كل الأمور، بواسطة رجاله في المواقع الرئيسية حيث يشرف على كافة بلديات المملكة، وحدثت حزازات ليس هنا مجال لذكرها. ورغم التقشف ونقص السيارات فقد يسر الله إتمام الحج، ومع شدة الحر آنذاك ونقص الثلج زادت الوفيات عن المعتاد، بدون أي أحداث أو قلاقل. لكن على حساب المخلصين ورأسهم فيصل، الذي قام بمهام وزارة الخارجية والمالية ثم الداخلية بعد إعفاء ولده عبدالله.

● بعد شهرين من استهلال العام (1379هـ) قدم الخثلان استقالته، حيث تعاضمت الحزازات بين أبناء الملك وبعض إخوته، وظهرت حركة تسمى نفسها " الإصلاح السياسي الوطني" لم يقتصر أعضاؤها على منسوبي ارامكو المتأثرين بأفكار عمالها الأجانب، بل امتدت إلى شباب في القصيم والحجاز، ثم انضم إليهم عدد من الأمراء المستأوون من الأوضاع. وقد رُفضت الاستقالة لكنه وجد نفسه مكبل عن أي انجاز، ولا يقدر على التعايش مع ذلك الجو المكهرب، وتلك التعاملات العفنة، فعاود الإصرار عليها ليتمكن من معالجة أمراضه وتعليم أبنائه. ثم أمر برعاية زيارة حافلة لملك المغرب، حيث يعرف دواخل الأسر الهاشمية من ذرية الحسن بن علي، ولتلافي اشكالات قد تحدث، حيث يؤمل أن يتوسط الملك مع عبدالناصر، لإنهاء الحملة الشعواء على السعودية. وبعد أيام من مغادرة محمد الخامس لمصر صدر قرار إحالته للتقاعد، وتعين في أمانة العاصمة أحد رؤساء الصحف من جدة، الذي كان يكثر من نشر صور من دولة أجنبية فيها الأمطار والأنهار، ويتساءل لماذا لا تكون مكة كهذه؟ وانتقادات هامشية أخرى، لكنه بعد فترة كتب أنه بعد أن رأى تعقيدات عمل البلدية، أدرك أن كل أقواله السابقة كانت غير واقعية، ثم تبين أن أول انجازاته هو إعادة الشيشة للمكاتب، بل واحضار خبير خاص لتجهيز شيشة أمين العاصمة!

● بعد عيد الفطر غير خطته للسفر إلى لبنان، حيث عادت خلافات قديمة للظهور، بعد أن اسكنتها الحرب الأهلية (شمعون وشهاب) وقرر السفر إلى مصر المكتظة بالمنائين، وقد كان مجلسه في مكة يزدحم بالمحبين وغيرهم من الباحثين عن كلمة ساقطة ينقلونها معظمة.

● في الشهر التالي وصلنا مصر، حيث رفيق والدي الشورى رحمهما الله، وكذلك محمد ابن العم رشيد رعاه الله، اللذان رتبا اقامة مؤقتة لنا جوار الزمالك. أفادنا الوالد أن مصر تغيرت كثيراً منذ آخر زيارة له قبل سنوات، لكنها كانت راقية في نظرنا، فالشوارع مرتبة والمتاجر راقية، مثل هانو وشيكوريل وصيدناوي وعدس (يهودي) كما أن العملة الورقية عليها صورة الملك فاروق، أما المعدنية فعليها اسم السلطان حسين وفؤاد! والمدارس مرتبة وجيدة مقارنة مع مشعلية مكة.

● فوجئت في وقت متأخر ذات ليلة بالحارس، يصيح علي لفتح الأبواب حيث ضيف من السفارة (الزغبي) الذي أخبر والدي بضرورة سفره عاجلاً لمقابلة الملك، وجاء أخي خالد رحمه الله ليبقي لدينا أثناء غيابه. بعد أسبوعين عاد وسمعته في مجلسه يتحدث عن لقاء المنقور في الديوان، الذي فاتحه في ترشيحه لتولي وزارة جديدة للحج، وأنه قابل الملك واعتذر منه. وأوصى بأن يكون وزيرها من الحجاز حيث المطوفين والأدلاء بينهم مشاحنات عميقة، لا يجابهها إلا من لديه مثل قدراتهم. كنا نستقي الأخبار من صحف الصباح المصرية، المليئة بالنقد البذيء (وسباب) لبلادنا الغالية، ومرتين في الأسبوع تصلنا صحف السعودية من السفارة، وفيها ردود على أكاذيب عبدالناصر. حيث وظفت محررين من لبنان والأردن، المبغضين لممارسات أعوان ناصر، بعد أن تمكن من السيطرة على سوريا، وتنازل له القوتلي عن الرئاسة، مع أطماع في توسعة الوحدة لتشمل بقية بلدان الشام الكبير.

● ذات يوم وجدنا مانشيتات الجرائد الحمراء، تتحدث عن صراع في " قصور الحریم" وأن سعود أقصى ولي العهد عن رئاسة الوزراء، وتولاها بنفسه مع أمراء صغار، ووزراء شباب مختصين وذلك بداية سقوط الدولة! ثم جاءت صحف السفارة تنوه بحركة تطوير البلاد، بعد أن تحسنت الأوضاع المالية، وتعد بالمزيد من الخير والرفاه للشعب، وذلك مما تسبب في تشويش أفكارنا في سن مبكرة، لكن تركيزنا على طلب العلم اشغلنا عن السياسة.

● في السنة التالية لوصولنا لمصر، بدأنا نعرف ما يردده البعض عن تدهور الزراعة والصناعة والطب والتعليم والمرافق، كنتيجة لإجراءات متهورة من عبدالناصر. الذي استغل حادثة المنشية قبل سنوات، للانقلاب على زعيمه اللواء نجيب وكافة الرفاق الذين رفضوا الخضوع لرغباته الطائشة. حيث حول ذلك البكباشي نفسه إلى امبراطور متغطرس، يصادر أملاك الناس ويسجن آخرين ويشنق البعض (عبداللطيف) ممن ساعدوه للوصول للحكم (الإخوان وحريق 52م) فتسارع تردى البلاد نحو الأسواء. ولما أمم الشركات الأجنبية التي تدير مرافق الخدمات، تعطلت أحوالها حيث غادرت الشركة البلجيكية مصر، بعد أن كانت تدير قطاع المواصلات من حافلات وترام كهربائي. وفوجئنا بإحدى الخادمت تذر من حدوث نقص في السكر والحبوب، وحتى رجال أعمال مصر غادروها للخارج (الشبراويشي) للعمل هناك. وأدى ذلك إلى أن يعيد والدي النظر في فكرة توسعة علاقته التجارية مع المنشآت المصرية، سواء في قطاع الأثاث أو الخيام، كما أن مجال الشتلات الزراعية للحمضيات والفواكه أصبح صعب تحقيق عوائد فيه، لكنه اضطر للاستمرار بحذر لحفظ العلاقة.

● لما قام جيش سوريا بحركة الانفصال عن الوحدة مع مصر، سخط البكباشي ناصر وزاد من نفقته على بلده وشعبه، وأدخل البلاد في مشاريع ذات تكلفة عالية وعوائد متدنية، لأجل بسط نفوذه خارج مصر، والانفاق على أسلحة سوفيتية ركيكة، والدخول في مغامرات عسكرية في الخارج زادت من تدهور الحال.

● في عام 1962م فكر والدي في العودة لمكة، لكن ذلك الصيف شهد أحداث مؤثرة، فقد توفي أخي الأكبر فجأة، ثم حضر عمي رشيد للعلاج رحمه الله. واعتكف والدي عن مجلسه، حيث عجت القاهرة بالسعوديين المناوئين للنظام، فإن وزارته الأولى انحلت بعد شهر، ثم تلتها التشكيلة الثانية. لقد حدثت فيهما مهاترات لم يستطع الملك سعود سدها، خاصة بين الوزراء الأمراء، والوزراء الدستوريين! وشاهدت اثنان منهما في المجلس بعد ترك الوزارة، بل أحدهما طلب الاختصار معه (الطريقي) وآخرون شاركوا في اللقاء المفتوح، وكان والدي يتحرج من منع أي ضيف من دخول مكانه. لكن الطامة حدثت لما جاء للقاهرة بعض أبناء الملك عبدالعزيز لاجئين عند بطل العروبة ناصر! لذا عمد لإيقاف لقاء مجلسه الأسبوعي منعاً للحرج.

● بعد ذلك بقليل (شهر) توفي عاهل اليمن (المملكة المتوكلية) وخلفه ولده الإمام البدر، الذي انقلب عليه رئيس حرسه (السلال) بعد أيام، لكنه تمكن من الفرار شمالاً للحدود السعودية. على الفور أرسل عبدالناصر حشد من عساكره مع مصفحات وطائرات لحماية الجمهورية، فقدم سعود الدعم المالي للبدر، الذي سانده القبايل الشافعية والزيدية، أما الروافض فيترصبون بالجميع لقاء الذهب. ترك والدي شقيقه عندنا وغادر مع ابن عمي سعد حفظه الله للرياض، والتقي مع الملك وجرى بحث عدة أمور باختصار، حيث صحت سعود متدهورة فسافر للعلاج. وفي الشهر التالي تولى فيصل رئاسة الوزراء وشكل مجلس متوافق مع ما يراه ولي العهد، مبتعداً عن الآراء الجامحة والشطحات الفكرية.

● عاد العم للحريق بعد أن اتسعت علاقته مع بعض "رواد أمية" وسيارة والدي الألمانية معروفة لدى عيون السفارة! واضطررنا للنقل من الفيلا إلى شقة كبيرة آمنة، بعد وفاة الحارس! ولما عاد والدي كان قد قرر التوسع في تصدير بعض المنتجات المصرية لجدة، لكن الأمور غدت صعبة بعد تناقص الخامات الجيدة، وإدارة العسكر التي أفسدت الأخلاق والذمم، فزادت الأسعار وتدنّت النوعية. لكن المشكلة الكبرى جاءت من سعر صرف العملة، حيث أصرت الحكومة المصرية أن يبقى سعر الدولار 40 قرش، كما كان زمن الرفاه والوفرة، وسعره الحقيقي يزيد عن 70 قرش. لذا صار بعض المنتجين يطلب السداد الجزئي بالجنيه في مصر، والبقية تسدد في السعودية بالريال، وذلك يعني الدخول في مخالفة الأنظمة المالية العسكرية الرديئة، لذا اضطر الوالد لخفض تعاملاته والتحوط عن الوقوع في إشكالات.

● كان والدي يحرص على أخذ أخبار لندن على مدى البث، وذات يوم سمعته يسأل الله اللطف، ثم في النشرة اللاحقة لاحظت صوت الملك سعود متقطعاً ويتهدج، قائلاً إنه عاد لبلاده ليستعيد السلطة ورئاسة الوزراء. لكن إذاعة جدة لم تذكر شيء عن ذلك، أما صحف مصر في اليوم التالي فهي تبشر بقرب سقوط الحكم، لاشتداد النزاع الداخلي. وفي مجلس الجمعة كان الحديث عن عودة الملك، وأن ولي العهد صار مسيطر على الأمور، يسانده في المالية عمه (الأصغر منه) مساعد، وإخوته فهد (الداخلية) وسلطان (الدفاع) وقد أمروا بمنع بث ذلك الخطاب من المطار. لكن بعض أبناء سعود الصغار أخذوا بكرة تسجيل، وبثوها هاتفياً (رودس) إلى الإذاعات الأجنبية، أما أبناء الكبار فقد

أيدوا موقف عمهم فيصل، حيث هو أستاذهم وصهر بعضهم، ويثقون في سداد رأيه ومعرفته.

● في الشهور التالية علمنا أن الملك شبه محاصر في الناصرية، لا يدخل عليه إلا أخواته وكبار الحاشية والعاملين عنده، ولا يخرج إلا للنزهة المسائية في حماية الشرطة (الداخلية) والحرس الملكي (الدفاع) إلى صلبوخ وخريص وديراب. وقد خفضت الخزينة الخاصة للنصف، وغادر المتردوتيل السويسري البلاد، وتعطل سوق حسام حيث الأطعمة الأوروبية الفارحة.

● في الأيام الأخيرة من تلك السنة، فوجئ الجميع بدعوة عبدالناصر لمؤتمر قمة عربي، لمناقشة تحويل مجرى نهر الأردن، لمنع الصهاينة من أخذ مياهه، لكن بدا أنه يريد مخرج من مأزق اليمن الذي وقع فيه، ولم يستطع الخروج منه. وقد وافقت الدول العربية على الحضور ما عدا السعودية، وسوريا التي تعرضت لحملة ضد حزب البعث، والمغرب الذي ذهب الجيش المصري للتدخل في نزاع حدودي مع الجزائر. ثم وافقت تلك الدولتان على الحضور، وأصبح من غير الملائم غياب المملكة. أصر الملك سعود أن يحضر شخصياً، ورافقه فهد وسلطان ومستشارون. وفي أوائل عام 1964م عقد المؤتمر، في مقر الجامعة بالقاهرة، ثم دبر ناصر حيلة أن يعود الملك لمقر السكن بالسيارة، لأنه متعب من المشي، ولما دخل القاعة الخالية فوجئ بأحدهم يتجه نحوه ويعانقه، وتجمع الإعلاميون للتصوير، ثم تبين أن الرجل هو السلالة رئيس جمهورية اليمن، التي لا تعترف بها السعودية.

● بعد عودة الملك للبلاد اجتمع الأمراء والعلماء، وصدر قرار سحب كافة صلاحياته واحالتها لولي العهد، الذي ينوب عنه في حضوره وغيابه، وشدد الحصار على الناصرية حيث يقيم. اغتاز بعض أولاد الملك وأمهاتهم، ثم توحشت القضية وتمكن البعض من ادخال مدفع قديم متهالك عن طريق جنوب غرب (نحو حنيفة)، وثار الملك وأخذ يصرخ أنه " ليس اليزابيث" ولا بد من عودة صلاحياته. ثم خابر رؤساء العشائر لإرسال مسلحين لنجدته! تجاوب معه نفر قليل فيما عدا حشد ضخم من عريينات سبيع، تمكنوا من دخول الناصرية، لكن قائدهم (ابن شوية) لم يتمكن من ذلك. لما حدث خلاف بينهم وبين القلة من مطير وعتيبة، الذين كانوا على خلاف مع والد الشوية، خرج أكثرهم وبقي بضعة مئات من السبعان محاصرين.

● لما انقضت 10 سنوات على حادث المنشية وانفراد ناصر بالسلطة، قرر تحسين أحوال البلاد وسمح باستيراد بعض مستلزمات الإنتاج، وعاد الخثلان لتصدير بعض السلع إلى جدة، بخاصة ما كانت جودته مقبولة وكلفته تنافسية. وفي نهاية الصيف عقدت قمة ثانية حضرها فيصل، واستقبله ناصر بحفاوة بالغة، وشاركنا في استقباله بمطار الإسكندرية، وتعجبت من أحدهم خرج من الصف ليقبل يد الفيصل (ربما زركلي) في حركة مسيئة. وشاهدت في المجلس بعض الإخوان الذين أفرج عنهم. وكان والدي يراهم على شاكنتين " إخوان السنة" الذين يسعون للإصلاح والرشاد، كما أنهم ناجحون في التجارة وأمناء. والأخرى "إخوان الخوارج" الذين يجعلون الدين مطية

للوصول للسلطة، ويستخدمون العنف ولا يباليون إذا ما جرح أو قتل فيه بر أو فاجر، وأولئك لا يتعامل معهم قطعياً بل ينصحهم للكف عن أذى خلق الله.

● زارنا أحد السبعان في القاهرة، وقص عن أحوال الناصرية ما لم يصدق، فقال إنهم قد طلبوا من جنود الحرس، توجيه مدفع للجهة الشمالية ورمي القذائف تجاه قصر المعذر، على أن يخرج المسلحون إلى هناك لإتلافه. لكن الجميع رفضوا لأن مهمتهم حماية الملك، وقد نبه والدي على وجوب الحذر من التورط في الفتنة، وجرت عدة لقاءات شارك فيها والدي والفضل (الثوري السبيعي) وآخرون. حيث انفض عن الناصرية كافة الحرس ولم تبقى سوى فرقة ابن شوية، وأرسلوا خط بذلك لأحد العرينات، لحث سبعان الناصرية على تجنب إطلاق النار، في تلك المشادة الكريهة بين أبناء الملك واخوته. لكن سعود كان في هلع من أن يلقي مصير الملك فيصل (ابن غازي) في قصر الرحاب ببغداد. وكادت ان تحدث أمور كريهة لكن الله سلم بفضلها، ثم برزانه تصرفات فهد وسلطان، وحكمة قائد مسلحي الناصرية السبيعي. وبعد أيام سمعنا في المذيع بيان مفتي السعودية، يعلن مبايعة فيصل ليكون ملكاً على البلاد وخلع سعود نهائياً؟ وأرسل والدي برقية مبايعة وولاء.

● أثناء فترة الخصام مع ناصر كانت شؤون السعوديين في مصر، تدار تحت واجهة المملكة الليبية المتحدة، لكن بنفس الفريق الدبلوماسي وفي نفس المبني. وبعد أسابيع من الخلع استراحت خواطرننا، لما صدر بيان في مطلع رمضان بقبول سعود مغادرة البلاد للعلاج في أوروبا، وقام أثرياء اليونان (لاتسيس وأوناسيس) بتدبير بعض شؤونه هناك، لكنه لم يقابل ملكهم فكانوا حريصين على مصالحهم في السعودية. كما توجه ابن شويه لمبايعة الفيصل، وشرح له ان موقف السبعان في الناصرية، ينبع من البيعة التي في رقابهم لسعود، والتي لم تنقضي إلا بعد قبوله التنازل. وتفهم فيصل ذلك وأمر بتعويض ما أصاب سبيع من تلفيات، في أملاكهم بالرمحية وغيرها وواساهم.

● لعدة شهور بقي منصب ولي العهد شاغراً لاختلاف الآراء، ورغم انشغال والدي في أعماله إلا أنه صدم بقوة، لما وردنا نبأ أن عصابة من الخوارج النجدية، رأوا أن تلفاز الرياض من المنكرات التي يجب تغييرها. وللأسف طأوعهم أحد حفدة الملك عبدالعزيز، وكذلك أحد كبار الفقهاء آنذاك، الذي كانت له نظرة حيال مسوغات خلع الملك، لكن الأمير سلطان لم يأخذ بها. وتوجه الجميع ليلاً لإحراق المحطة (شرق الناصرية) وتبادلوا إطلاق النار مع الشرطة، ثم هرب الشيخ للمدينة وكان من بين القتلى الأمير!

● توطدت علاقة الوالد مع بعض الإخوان المعتدلين، وازدادت حركة بضائعه من السويس لجدة وكان مجلسه عامر بالكثير من رفاق مكة، وبعض المصريين مثل مخلوف (المفتي) وسعيد عبدالله والشيمي والشورى وأحمد حسن والزهار والشافعي، وعدد من السعوديين في مصر وزوارها مثل الفضل والعقيل والشثري والبسام والمانع والقرعاوي وعبدالواسع، ومن العاملين فيها مثل صديق وأشعري وأولياء. بل إن

البعض كانوا يحرصون على زيارتنا أثناء سفره، لمتابعة أحوالنا والاطمئنان على اوضاع دراستنا.

● في الصيف إذا لم نذهب للإسكندرية أو رأس البر، كنا نقوم بنزهات نهائية للضواحي، مثل حلوان وسقاره والقناطر وبنها. ذات يوم أفادتت العاملات أن والدي منع الابتعاد عن المنزل، والاكتفاء بالتنزه في الحدائق القريبة، ولم تكن في وسائل الإعلام أي إشارات لاضطراب. لكن بعد أيام علمنا أن ناصر غادر إلى السعودية، وفي وقت ارتفعت فيه وتيرة حرب اليمن، وقام جيش مصر هناك بدك مواقع نجران، وحلقت الطائرات فوق جدة، وألقت منشورات التهديد، ورد الملك فيصل بأن البحر الأحمر سيكون كذلك بدماء المعتدين، وسيهاجم السفن المارة قرب السواحل السعودية.

● سمعت من أحد مجالسي والدي في السلك الدبلوماسي، أن ناصر قال للملك فيصل "أصحابك الإخوان" كلهم في السجن، والذهب المرسل من الخرطوم صادرناه؟ ثم في المدرسة الخاصة التي فيها بعض أبناء قادة العسكر، وعدد من الاقطاعيين السابقين. عرفت أن الآلاف من جماعة الإخوان المسلمين، قد قبض عليهم وزج بهم في السجن الحربي، واعتدي على أعراضهم ومحارمهم وعذبوا، حيث كانوا يخططون لإثارة القلاقل في مصر، حسب ادعاءات إدارة المباحث السرية. وبلغ الأمر القبض على بعض مساعدي الرئيس وحجزهم (كمال الدين) لأنهم كتبوا للطاغية أن يتقي الله.

● كان والدي لا يكثر بالسياسة، إلا في حدود ما تؤثر على أعماله التجارية أو الشخصية. في تلك الحقبة رزقه الله ببنت، أثارت دهشة الكثير حيث هو والدي في سن متقدمة، لكنه سبحانه يهب لمن يشاء، وكبرت الآن وهي القائمة بكافة شئون الأهل. رغم انشغالها كاستشارية في المدينة الطبية، على خطى الشقيقة الكبرى الاستشارية في مستشفى جامعة جدة، حيث تقيم مع عائلاتها رعى الله جميع القرابة والأحبة. وفي منتصف العام التالي (66م) عانى من تدنى جودة البضاعة المصرية، حيث انتشرت "عاهة الاستهتار" في أكثر المنشآت. لذا فكر في جلب بضاعة من الشام عن طريق البر للمملكة، وأوصاه الشثري أن يأخذ مسكن في منطقة حريك، أما بالغنيم فأوصى بالسكن في المنطقة السنية (شرق) وأن يتجنب المناطق التي بها نصارى وروافض، لوجود احتكاكات وحزازات. كما أن تجارة الترانزيت من هناك متيسرة لجلب بضائع أوروبية تنقل من ميناء بيروت للحدود بدون جمرك، ورسوم غير مرتفعة وسعر العملة ثابت نصف دولار لليرة.

● قام بجولة في جنوب أوروبا فزار إيطاليا وفرنسا وإسبانيا، وتحاشى اليونان حيث يقيم الملك في المنفى، لتلافي أي سوء ظن من البعض، بخاصة أنه زاره الزركلي هناك مع أحد "رجال أدهم" وألقى عليه من قصيدته القديمة: -

العين بعد فراقها الوطناً ***** لا ساكنا ألفت ولا سكنا

ريانة بالدمع ألقها ***** ان لا تحس كرى ولا وسنا

يا موطناً عبث الزمان به ***** من ذا الذي أغرى بك الزمان

إن الغريب معذب ابداً ***** إن حل لم ينعم وإن ظعنا

تمعض الملك سعود من ذلك، بخاصة أنه لم يكن مطمئن لما قام به الزركلي ضد الشريف حسين وولده الملك عبدالله، لكنه احتفى بالرجلين وأكرمهما، حيث يعلم أنهما من أعوان فيصل. وسمعت في المجلس انهما عرضا عليه العودة للبلاد، بمنصب "عظمة خادم الحرمين" مع مزايا فخرية ومادية وموكب رسمي، بدون صلاحية سياسية أو ادارية لكنه رفض.

● اهتزت مصر والعالم الإسلامي ووالدي آنذاك بنبأ شنع عدد كبير من الإخوان، وعلى رأسهم قطب صاحب " ظلال القرآن" والذي درس في بلاده وأوروبا وأمريكا، ولا توجد أدلة واضحة على علاقته بأي تفجيرات لم يحدث شيء منها. وسمعت في مجلسه مقارنة بين القضيتين في العام السابق، وهما حرق مقر التلفزيون في الرياض الذي قتل فيه البعض، ودعوى خطة تفجير القناطر! وكيف تعاملت السلطة الرشيدة مع واعظ الأولى، ومعاملة المتطرس مع أقاويل الحدث الثاني؟

في الأيام الأخيرة من تلك السنة، كان الختلان يجهز سفر احدي السفن لتشحن بضائع له، من بينها خيام وأثاث مكتبي ومنزلي وشتلات زراعية. في السابق يتعامل مع الشركة الخديوية للبواخر، لكنها ذهبت ولم تتمكن المراكب التجارية من سد فراغها، بل ينتشر فيها التلاعب. لذا كان يحرص على الإشراف على الشحنات حتى مغادرتها، ويتسلم من المخلص في جدة بيان الاستلام. لكنه تلقى بقلق نبأ وصول أحد أبناء الملك سعود للقاهرة، لكي يرتب مقر لإقامة والده فيها بدلاً من اليونان، وخشية الأقاويل المغرضة حرص على مغادرة مصر عاجلاً، وقبل مغادرة سفينة الشحن. لأول مرة سمح لي وأخي أن نودعه في المطار، وكانت أقرب رحلة تغادر بعد منتصف الليل، وفي جو شديد البرودة كانت المشاعر مهتزة، فلم يعد بعدها لمصر العزيزة.

● لما وصلت السفينة إلى جدة رفض قبطانها إنزال البضائع، إلا بدفع رسوم إضافية غير متفق عليها، وأبرق لي لمراجعة سعيد عبدالله، الذي أصر أن أزوره في منزله الفخم في أعلى عمارة بجاردن سيتي، تطل على النيل وسفارتي أمريكا وبريطانيا. وأستاء الرجل الرشيد من ذلك التصرف، لكنه أوصى بسرعة السداد، حتى لا تتلف الشتلات، وبعدها قمنا بتسوية الأمر، حيث تبين التحايل من عمال السفينة ومالكها، وكانت تلك أول مشاركاتي في عمله التجاري.

● جاءت زوجة الشورى برسالة شفوية، بوجوب الابتعاد عن شبرد، وسكن أولاد سعود في الدقي، والتركيز على الدراسة، كما أنه غدا ممنوع من السفر كلياً وليس لمصر فقط. كنت في نهاية المرحلة الثانوية (علمي) أتأهب لدراسة الطب، وأتابع شؤون الأهل وتوفير الحاجات الأساسية، التي كلفني بها والدي. وقد استأنا جميعاً لما أخذ

المصريون الملك سعود لليمن، ليوجه النقد لبلاده، مما تسبب في هدم سور الناصرية وإيقاف مخصصاته.

● بعد ذلك بأسابيع فوجئنا بالجيش المصري يتوجه إلى سيناء، في مغامرة خطيرة، حيث لم يكن لديهم ما يكفي من طعام وماء، مع شح الوقود والذخيرة وقلة التحصينات في الصحراء. وقبل اختبار الثانوية بأربعة أيام، هجم الصهاينة على سيناء واقفلوا قناة السويس، ومات آلاف الجنود العرب، وأعقب ذلك احتلال الجولان السوري، وما تبقي من فلسطين والقدس. توقفت اختباراتنا وشاهدنا ناصر يعلن تنحيه ومسؤوليته عن الهزيمة (نكسة) بسبب عنصرياته الهوجاء وسياسته الخرقاء.

● قرر ناصر تعويض الملك حسين عن جره لتلك المغامرة الفاشلة، بتخصيص كافة مقاعد الوافدين في الجامعات لطلبة الأردن، حيث سقطت جامعتهم الوحيدة في يد الصهاينة. لكن الله يسر دخول جامعة الأزهر، حيث كلية للطب يسبقها سنة تحضيرية بها علوم إسلامية، لتقليل عدد النصارى، وذلك عن طريق الشيخ الباقوري (إخواني مبعوض للخوارج) رحمه الله. ورغم الأوضاع السيئة في مصر فقد انهيت السنة بتفوق بفضل الله، حيث ارتجت المباني حولنا لما دكت مدافع الصهاينة، معسكرات غرب السويس والمصفاة بعد اغراق ايلات. وقبلها إطلاق نيران شرقنا في الجزيرة، عند مهاجمة سكن المشير عامر والقبض عليه ثم انتحاره (أو نحروه)؟ ولما بشرت والذتي بتفوقي وان الجامعة قد خصصت لي مكان في مدينة البعوث، ومبلغ تسعة جنيهاً شهرياً كمصروف، استاءت للغاية فقد رفض والدي ضمنا للبعثة السعودية، التي تدفع أضعاف ذلك عن طريق الملحق (المانع) والسفارة. بخاصة ان الملك فيصل خصص معونة للمجهود الحربي المصري، تبلغ ملايين الجنيهاً الإسترليني سنوياً، للحث على نبذ مبادرة شاوشيسكو لانسحاب الصهاينة، مقابل السلام والتطبيع معهم، لأن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة.

● فوجئنا بعد أيام بأمر من والدي لاستلام تذاكر الطيران لجدة، وتسليم السكن والسيارة لمندوب دبلوماسي سعودي، وسرتني مشاهدته في صحة جيدة، حيث رافق الأهل من سلم الطائرة للسكن، وبقيت مع الهويدي في المطار لاستلام الحقائب. رغم أنه في منتصف الثمانينات فقد كان يسير منتصب القامة، ورافقنا لأداء العمرة في نشاط وهمية، وحافظ على زيارة الحرم المكي والطواف عدة مرات كل أسبوع، بينما ذهبت للدراسة في الجامعة الصغيرة بالرياض.

● بقي يرحمه الله يزاول بعض الأعمال في جدة، ويتزاور مع الأهل والأحبة بالحجاز، في الخمس سنوات التالية، لكنه يتكدر من الأنباء السيئة. مثل وفاة الملك سعود المفاجئة، وهو يتناول الغداء في منفاه، بشكل مشابه لما جرى للملك فاروق قبل ذلك! كما تأثر كثيراً لوفاة رفيق خمسين سنة، في عيزة ثم مكة والهند ومصر، عبدالله الفضل الثوري السبيعي رحمهما الله. ولما بلغ التسعين ثقلت الحركة وضعف السمع والبصر، ولم يكدر شيخوخته بعدها سوى ثلاثة حوادث. أولها لما جاءته إحدى العمات من جدة مع أكبر أولادها وهي تبكي، معها صحيفة من الرياض فيها اعلان من العم رشيد، عن بيع كافة

أملاك الجد عبدالرحمن. ولما صعدت عند الوالدة صرحت بما يساورها، من الظن ان أخويها يريدون حرمان أخواتهم من الميراث، فوعد يبحث الأمر بعد رمضان. آنذاك صدر قرار ابتعائي لأمريكا، وبعد العيد جهزت للسفر لجدة للتأشيرة من السفارة وتوديع الأهل، وفوجئت بحضوره مع أخي فتوجهنا للحريق. وأفاد العم أنه بعد عودته من الريث كان يقوم بشؤون والده وزوجته لسنتين، ويوفر متطلبات ماكينة الماء، وقد منحه لذلك ارض سجلها في الحوطة. فاقترحت عليهما عرض الأمر على محكمة الحريق، وغادرت لوداع الأهل والسفر لإدراك الفصل الدراسي، وفي أمريكا علمت ان الأمر بينهما تطور لمقولة سيئة، أغضبت والدي وسببت الكدر للجميع. لا يتسع المجال للحديث عن ذلك الأمر الذي يستفسر عنه الكثير، ومن يرغب الاستزادة سيجد ذلك في صلب السيرة.

- في تلك الأثناء صدم العالم باغتيال الملك فيصل برصاص ابن أخيه، الذي كانت له مواقف مشهودة، في قضية فلسطين والبترو، وكان قد اختير رجل عام 74م. وقد أثر ذلك على والدي بشدة، حيث العلاقة حميمة لنصف قرن لم يؤثر عليها سوى لغط البعض، أثناء الخلاف مع الملك سعود! والحادثة الثالثة لما أخبره أحد العاملين معه (عتيبي) ان الأمن اكتشف وجود طعام كثير وذخيرة، مخزنة في خلاوي أسفل الحرم، وان الشكوك حامت حول حجاج من إيران الخميني، الذي عاد وهو يتكى على الفرنسيين ليطيح بالشاه، ويقوم دولة روافض متزمتة تبغض المسلمين. لذلك نصحنا بعدم الذهاب للحرم لحين تبين الأمر، وقد توفي قبل قليل من حرب جهيمان، حيث انحصر الناس في الحرم وقُتل البعض وتعطلت الصلاة فيه لأسابيع.
- قبل رمضان 1399هـ بأيام زاره بعض الأحبة من الأهل والصحب، وكان متوعك يعوده أطباء وممرضون، ولما اختلط عليه الأمر ظن دخول الشهر وبداء الصيام، ثم دخل في غيبوبة وفاضت روحه لبارئها جمعنا الله به في جنة النعيم.